المبحث الأول

مصادر الصورة البدويَّة

إننا حين نسعى لتحديد مصادر الصُّورة البدويَّة في الشعر الأندلسيّ ، لا نحاول القول إنَّ هذا الذي سنذكره هو فقط ما اتخذه الشعراءُ معيناً ، ورافداً للبداوةِ في شعرهم ، ولكننا سنلمُّ بأهم العناصر أو المصادر التي ساعدت في تشكيل ثقافةِ البادية في الشعر الأندلسيّ ، وهي ثقافة شعبٍ عربيٍّ غريب الديار ، أعاد بهذا الشِّعر لنفسه بداوتها الأولى ، ونحن حين نذكر أن من أهمِّ مصادر هذه الصور ، الثقافة أو التاريخ أو الدين وغيره ؛ إنما نتحدَّث عن ثقافة عروبة وتاريخ عرب ودينهم ، ممَّا نعني به أنَّ الثقافة الأندلسيَّة ، هي ذاتها ثقافة العراق ، وهي ذاتُها ثقافة الحجاز ، وكذلك التاريخ والدين وغيره ، وأن مصادر الصُّور واحدة ، ومعينها واحد .

ولعلَّ أهمَّ ما يمكن أن ترجع إليه المصادرُ في الصورة الشعريَّة هو الخيال ((فالخيال مصدرٌ مهمٌّ من مصادر الصور الفنية كثيراً ما يمدُّ الأديب بصور بديعة ، سواءٌ كانت عناصرها مستمدّة من الواقع وقام الخيال بالتأليف بينها ، أو كانت عناصرها والتأليف بينها مستمدَّة من خيال الشاعر لا وجود لها في الواقع ، وفي الحالين يؤدي الخيال دوراً مهمًّا لا غنى للأديب عنه ، ولا نبالغ إذا قلنا إنَّ الخيال من أهمّ المصادر التي اعتمد عليها شعراؤنا العرب قديماً وحديثاً ، وذلك لأنه عنصر مهمٌّ في العمل الأدبي لا غنى عنه))[1].

---

(١) عضوية الخيال في العمل الشعري ، دكتور عبد اللطيف حديدي ، ص٢٠٨ .

فالخيال مكوِّنٌ مهم من مكونات الصُّور الشعريَّة ، التي استلهمهما الشعراء من مصادر متعدِّدة فـ ((للخيالِ عند الشعراءِ مصادر يستقون منها بمعنى أنهم يستمدون أخيلتهم من أشياء مختلفة ، وهذه الأشياء تكون محسوسة كالبيئة التي عاش فيها الشاعر ، وتكون غير محسوسة كثقافة الشاعر وتجاربه الشخصيَّة ، وعلى ذلك فإنَّ مصادر الخيال هي الأشياء التي يتكئ عليها الشعراء في إبداع أخيلتهم ، بل هي منطلقات الخلق الفني التي تعكسها الأشياء على مواقع الإحساس في نفوسهم ، كما نجد لكلّ شاعر طابعاً خاصًّا في أخيلته يتلاءم مع بيئته وتكوينه الثقافي وقدرته الخياليَّة . .)) [1] .

وقد ذكر ابن طباطبا العلوي قديماً مصادر هذا الخيال عند العرب فقال : ((واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ، ما أحاطت به معرفتها وأدركه عيانها ، ومرَّت به تجاربها ، وهم أهل وبر صحونهم البوادي ، وسقوفهم السماء ، فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها ، وفي كل واحدةٍ منهما في فصول الزَّمان على اختلافها ، من شتاءٍ وربيع وصيف وخريف ، من ماء وهواء ونار ، وجبلٍ ونبات ، وحيوان وجماد ، وناطق وصامت ، ومتحرّك وساكن ، وكل متولّد من وقت نشوئه وفي حال نموه إلى حال انتهائه ، فتضمَّنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانُها وحسُّها ، إلى ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ، ومذمومها ، في رخائها وشدَّتها ، ورضاها وغضبها ، وفرحها وغمّها ، وأمنها وخوفها ، وصحَّتها وسقمها ، والحالات المتصرّفة في خلقها ، من حال الطفولةِ إلى حال الهرم ، وفي حال الحياةِ إلى حال الموت ، فشبهت الشيء بمثله تشبيهاً صادقاً على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتها)) [2] .

---

(١) عضوية الخيال في العمل الشعري ، دكتور عبد اللطيف حديدي ، ص٩٧ .

(٢) عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، تحقيق : دكتور محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص٤٨ .

فدلَّ ابن طباطبا بقوله : إنَّ العرب أودعت شعرها ما مرَّت به تجاربها وهم أهل وبر[1] ، على أن الشعر حافلٌ بصور البداوةِ المستمدَّةِ من البيئة التي كان فيها البدو ((صحونهم البوادي وسقوفهم السماء))[2].

وهذا الشعر بما فيه من هذه الصور للبيئةِ البدويّة كان مصدراً ثريًّا من مصادر الصُّور الشعريّة في الأندلس :

فمن مصادر الصور البدويَّة في الشعر الأندلسي :

البيئة البدوية :

ونحن إذا قلنا إن البيئة البدويَّة مصدرٌ مهم من مصادر الصورة في الشعر الأندلسي ، فإننا لا نعني بذلك أن يكون الشاعر قد عاش فعلاً حياة البداوة ، ممَّا كان بعيداً عن البيئةِ الأندلسيّة ـ إذا استثنينا واقع الرحلاتِ الكثيرة ، ووجود بوادٍ قريبةٍ من الصحاري المغربيَّة في الأندلس ـ فصور البيئة البدويّة في الشعر الأندلسي ـ غالباً ـ من الصُّور المستمدَّة من الثقافة المعرفيَّة الكبيرة لدى شعراء الأندلس بحياة البدو وصورها .

((فالشاعر إنسان يستطيع أن يجدّد العهدّ بتأثرات حسيَّةٍ معينة كما لو كانت تحدثُ أوّل مرَّة ، وليس الخيال نفسه إلاَّ عملاً من أعمال الذاكرة ، إذْ لا شيء ممَّا نتصوَّره لم نكن نعرفه بوجه ما من قبل . . . وليس يعني ذلك أن الخيال يتوقف على الممارسة العلميَّة الواقعية للتجارب ، ولكن من اللازم حين يكتب الشاعر في موضوع لم يشهده أن يكون ثريّاً بتصوُّراتٍ وانفعالاتٍ من خلال مشاركة ذهنية سابقة ...))[3].

هذه المشاركة الذهنية هي الصِّلة الوثيقة بين حياة البداوة وبيئتها والشعر الأندلسيّ ، فالبيئة البدويَّة في الشعر ، تدخل ضمن ما حفظته الذاكرة العربيَّة

(١،٢) عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، تحقيق : دكتور محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص٤٨ .

(٣) الصورة الأدبيَّة ، دكتور مصطفى ناصف ، ص٣١ .

عبر الموروث الثقافي العربي الحافل بصور البداوة ، وبيئة البدو وحياتهم ، مما كان مشتركاً في جميع الثقافات العربيَّة وعلى كل الأحوال ، وفي كل الأزمان .

((فالبادية والرحلة والجمل وحيوان الصحراء ، والسَّراب وأعلام الطريق ، والغبار والرمال ، وسرى الليل والهجير والبرد ، كانت عامَّة مشتركة لدى جميع الشعراء وكأنَّها أعمدة لا غنى عنها لكل شاعر ، نهل منها الشعراءُ كلٌّ بمقدار ، وإذا كان هناك من خلافٍ بين واحدٍ وآخر ، فما هو إلا خلاف في الصياغةِ وفي طريقة العرض لا الجوهر))[1] .

والبيئة البدويَّة هي ما حوته البادية من معالم في صحرائها وحيوانها ومياهها ، ونباتاتها ، وما إلى ذلك ـ وهو كثير ـ وقد حفل الشعر الأندلسيّ بكثيرٍ من أوصاف البادية ، وتداخلت معالم البيئة البدويَّة في معظم صور هذا الشعر ، وفي سياقاتٍ متعدِّدةٍ متنوعة ، ومن الأمثلة على ذلك ، ما ذكره الشعراء من أماكن بدويَّة ، نجديَّة وحجازيَّة ، وهي تكثر في الشعر الأندلسي ، ويجنح ذكرها في معظم سياقاتِهِ إلى الرمز والإيحاء ، ومن هذه الأماكن البدويَّة (المحصَّب) يقول أبو الحسن علي بن جودي[2] :

سقى دارك اللائي ببطنِ محصَّبٍ مثاكيلُ[3] من وفدِ الغمامِ المرنَّحِ[4]

وقد استعار صفة المثاكيل للغمام ، لأنه أراد شدَّة المطر وقوَّته ، ونظر في هذه الاستعارة لقول ذي الرُّمة مشبّهاً أصوات الغربان بالثكالى[5] :

---

(١) الصُّورة في شعر بشار بن برد ، دكتور عبد الفتاح نافع ، ص١١١ .

(٢) نفح الطيب ، المقرّي ، ٥٩/٧ .

(٣) مثاكيل : الثكل الموت والهلاك ، والثكل فقدان الحبيب وأكثر ما يستعمل في فقدان المرأة زوجها ، والثكول التي فقدت ولدها . انظر : اللِّسان ، مادة (ثكل) .

(٤) المرنَّح : المتمايل ، ترنح الرجل وغيره ، تمايل من السكر وغيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (رنح) .

(٥) ديوان ذي الرُّمة ، ص٤١٨ .

وَمُسْتَسْحِجَاتٍ[1] بالفراقِ كأنَّهُ   مثاكيلُ من صُبَّابة[2] النُّوبِ[3] نُوَّحُ

وابن جودي كانت الصُّورة لديه مختلفة الدلالة لاختلاف الغرض ، فهو شبَّه السحاب بالثكالى بجامع البكاء ، كما أشبع الوصف بذكره الترنح والميلان في استعارته هذا الوصف من السكران للسحابة ، بما أراد به ثقلها بالمطر .

ومن الأماكن البدويَّة التي أكثر الشعراء الأندلسيون من ذكرها في صورهم (رضوى) وهو جبلٌ معروف بالمدينة[4] ، فشبهوا به في قوَّةِ العزم والحلم ، يقول لسان الدين بن الخطيب[5] :

فلو أن رضوى حُمِّلَتْ بعضَ همَّتي   لطَأْطَأَ من أكتادِ رَضْوى ثقيلُها

ومن هذه الأماكن أيضاً (سقط اللوى)[6] ومنه قول الرُّصافي البلنسي ، يصوِّر أيام اللهو والشباب والصَّبوة ، فيستعير من البداوة مغانيها ، ويذكر اللوى والمضارب والخيام ، يقول[7] :

ولقاءُ جيرتنا غداتئذٍ   متيسِّرٌ ومرامهمُ قصدُ

وخيامهمْ أيامَ مضربها   سقطُ اللوى وكثيبةُ الفردُ

أعدو بها طوراً ورُبَّتما   رُعتُ الفَلا واللَّيلُ مُسْوَدُّ

---

(١) مستسحجات : تُقال للغربان ، وشبَّهها بالنوبة لسوادها ، وشحيج الغراب ترجيع صوته ، انظر : اللِّسان ، مادة (شجح) .

(٢) صبابة القوم : صميمهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (صبب) .

(٣) النوب : جنسٌ من السودان ، انظر : اللِّسان ، مادة (نوب) .

(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (رضي) .

(٥) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٤٩٠ .

(٦) اللِّوى : بالكسر ، وفتح الواو ، والقصر ، في الأصل منقطع الرملة ، وهو أيضاً موضع بعينه قد أكثر الشعراء من ذكره وخلطت بين ذلك اللّوى والرمل فعزّ الفصلُ بينهما ، وهو وادٍ من أودية بني سليم ، انظر : معجم البلدان ، ٥/٢٣ .
والسقط : سقط الرَّمل ومنقطعه ، انظر : اللِّسان ، مادة (سقط) .

(٧) ديوان الرُّصافي البلنسي ، ص٥٩ .

وأكثر الشعراء الأندلسيُّون من ذكر مكان (وجرة) البدوي المشهور بكثرة الظباء ، يقول ابن هانئ[1] :

ولـــنِعْمَ مَغْـــنى اللّهـــو تـــرأمُ[2] ظلّـــهُ   آرامُ[3] وجرةَ[4] رُخْـــنَ أو أُدمانُهـــا[5]

وصوَّر الشعراء الأندلسيُّون من معالم البيئة الصحراويّة (العرصات) ، يقول أبو عمر بن حربون الشلبي[6] :

إذا ما أنخـــتَ العـــيسَ في عرصـــاتهم[7]   دنـــوتَ فصـــافحتُ العُـــلا والمكارمَـــا

فذكر الإناخة بالعيس والعرصات ، في سياقِ المديح .

وصوَّر الشعراء الأندلسيّون من معالم البيئة البدويّة أيضاً ، (الأجارع) ، و(الدعص) ، في مثل قول الرُّصافي البلنسي[8] :

إلى كـــم أبـــا بكـــرٍ نحـــومُ بـــأنفسٍ   ظماءٍ إلى عهـــد الأجـــيرعِ[9] أو حمـــصِ
كـــأن لم تـــرَ تلـــكَ الـــرُّبى وكأنَّهـــا   عرائسُ ترعَاهَـــا المواشـــيطُ لانـــصّ[10]

---

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٣٦٢ .
(٢) ترأم : تلازم ، وتألف ، انظر : اللِّسان ، مادة (رأم) .
(٣) آرام : جمع ريم وهو الظبي الأبيض الخالص البياض ، انظر : اللِّسان ، مادة (ريم) .
(٤) وجرة : موضع بين مكة والبصرة ، ليس فيها منزل ، يكثر فيها الوحش والظباء ، انظر : اللِّسان ، مادة (وجر) .
(٥) أدمانها : الأدمة في الظباء لون مشربٌ بياضاً ، انظر : اللِّسان ، مادة (أدم) .
(٦) ديوان أبي عمر الشلبي ، ص١٥٩ .
(٧) العرصات : جمع عرصة ، وقيل هو كلُّ موضع واسع لا بناء فيه ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرص) .
(٨) ديوان الرُّصافي البلنسي ، ص١٠٣ .
(٩) الأجرع : الأرضُ ذات الحزونة تشاكل الرمل ، وقيل هي الرملة السهلة المستوية ، انظر : اللِّسان ، مادة (جرع) .
(١٠) النصّ : ضربٌ من سير الإبل (نصص) .

ولا رنّقت[1] تلك الأراكةُ فوقنا بلوثِ إزارِ[2] الظّلِ في كفلِ الدّعصِ[3]
وكان لنا فيها هناكَ مآربٌ نطيعُ الهوى العذريَّ فيها ولا نَعْصِي

فربط الشاعر في الصُّورة بين الأجرع ، والدعص ، والهوى العذري ، وهي من البيئة البدويَّة ، والموروث البدوي ، استلهمها الشاعر في وصف الهوى وأيام اللهو ، والشباب ، والصبوة .

كما ذكر الشعراء الأندلسيُّون من معالم البيئة البدويَّة (الأطلال) ، التي كان يكثر وجودها في الصحارى والبوادي ، حيث يترك البدو المكان إلى مواطن الكلأ والعشب يطلبون النجعة ، وتبقى بعدهم آثارٌ بدويَّة بسيطة كليله ضعيفة تدلُّ عليهم ، من دمن وبعر وأثافي وغيرها ، صوَّرها الشعراءُ الأندلسيُّون ، ووصفوا الرياح التي تتناوح في الأطلال ، والأمطار التي تعفِّيها ، يقول إبراهيم ابن محمد الطويجن[4] :

وحولَ العقيقِ عقيقٌ جرى بدمعي وقد كانَ دُرًّا نُضَارَا
فأغرقَ بالدَّمعِ نُؤياً وحَوْضاً وأشرقَ بالدَّمعِ شيحاً وغَارا

فذكر النؤي والحوض .

كما ذكر ابن حمديس من عناصر صورة الطلل البدويَّة الأثافي ، وهي الأحجار التي كان يضع البدو عليها قدورهم[5] ، فاستخدم ابن حمدبس هذا الملمح من البيئةِ البدويّة في سياق المدح ، قال[6] :

يرمي بثالثةِ الأثافِي قِرنَهُ فالأرضُ منها تشتكي الزّلزَالا

---

(١) رنّقتْ : رفرفت ، انظر : اللّسان ، مادة (رنق) .
(٢) لوث الإزار : إدارته مرتين كما تُدار العَمامة ، انظر : اللّسان ، مادة (لوث) .
(٣) الدعص : القور المجتمع من الرمل ، انظر : اللّسان ، مادة (دعص) .
(٤) مختارات من الشعر المغربي والأندلسي لم يسبق نشرها ، إبراهيم بن مراد ، ص١٧٩ .
(٥) انظر : لسان العرب ، مادة (أثف) .
(٦) ديوان ابن حمديس ، ص٣٨٨ .

كما استلهم لسان الدين بن الخطيب صورة الطلل البدويَّة في صف استعاري لديار غادرين أخذ لها من بيئة البداوة صفة الطلول الموحشة ، فقال[1] :

والغدرُ شرٌّ سجيَّة مذمومة ... شهدَ الحكيمُ بذاكَ والمتملّلُ[2]
فاسألْ ديارَ الغادرينَ فإنَّها ... مجيبةٌ أطلالُها من يسألُ
جرَّت عليها الرَّامسَاتُ ذيولَها ... وعوَتْ بعقوتها[3] الذّئابُ العُسَّلُ

فابن الخطيب عندما استعار للغدر وأهله صفة الأطلال الخربة ، جاء بما ناسب ذلك في وصفه الوحش الذي كان بها ، فلم يذكر عيْناً وآراماً وظباءً ، لأن السِّياق سياق ذمّ ، ولذلك اختار في هذه الصورة من الوحش الذئاب العواسل .

وصوَّر الشعراء الأندلسيُّون (صحراء البادية) وذكروا أنها (خرقٌ) أي تتخرق الرياحُ فيها لاتساعها[4] ، يقول ابن جاخ الشاعر[5] :

ولربَّ خرقٍ قد قطعتُ نياطَهُ ... والليلُ يرفلُ في ثيابِ حدادِ
بشملّةٍ[6] حرفٍ[7] كأنَّ ذميلَها[8] ... سُرُحُ الرياحِ وكلُّ برقٍ غادي
والنجمُ يحدُوها وقد ناديتُها ... يا ناقتي عوجِي على عبَّادِ

فصوَّر الفلاة والناقة التي كانت من المستلزمات الضروريّة للمعيشةِ البدويَّة ، ووصفها بأوصاف البداوة شملّة ، حرف ، وذكر الذميلَ وهو ضربٌ من سير الإبل ، ووظَّف هذه الصُّور المستقاة من البيئةِ البدويَّة لخدمةِ سياق المدح .

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٤٩٧ .
(٢) المتملّل : الذي يملى عليه فيكتب ، انظر : اللِّسان ، مادة (ملل) .
(٣) عقوتها : ساحتها ، انظر : اللِّسان ، مادة (عقا) .
(٤) انظر : لسان العرب ، مادة (خرق) .
(٥) نفح الطيب ، ٤/٢٤٤ .
(٦) الشملّة : الناقة الخفيفة السريعة المشمِّرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (شمل) .
(٧) حرف : الحرف من الإبل النجيبة الماضية التي أنضتْهَا الأسفار ، شبهت بحرف السيف في مضائها ونجائها ودقتها ، انظر : اللِّسان ، مادة (حرف) .
(٨) الذميل : ضربٌ من سير الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (زمل) .

وصوَّر الشعراءُ الأندلسيُّون من متطلّبات بيئةِ البداوةِ (السُّرى) ، وما يستلزمه ذلك من صفاتٍ في المرتحل التي تتضمَّن الجسارةَ والشجاعة ، لضربه الصحراء في ليلٍ بهيمٍ لا تعرف فيه معالمُ الطريق ، يقول ابن حمديس[1] :

لست أُثنَى عن السُّرى في طريقٍ ... خيَّمَ الليلُ فوقَهُ وهو خَيْدَعْ[2]

فكأنّي خُلقتُ جَوَّابَ أرضٍ ... أصِلُ العزمَ حشوهَا وهي تَقْطَعْ

ولأنَّ الصحراءَ تتطلّب من الذي يقطعها إضافةً : للجسارة ، وعزم القلب ، الاستعداد بالسلاح ، والزاد ، والراحلة ، مما كان مطلوباً في هذه الرحلة الطويلة ، صوّره الشعراء الأندلسيُّون فقال الغزال[3] :

أعاذلتي إنَّ الظلامَ بشيرُ ... وعندي رحلٌ حاضرٌ وبعيرُ

وعندي من الزَّادِ الكفافُ ومؤنسٌ ... إلى جانبي عضبُ[4] الغرارِ[5] ذكيرُ[6]

وقلبٌ ذكيٌّ ما يكادُ يخونُني ... إذا خِينَ مجموعُ الحصاةِ وقورُ

وصوَّر الشعراءُ الأندلسيُّون من معالم الرحلة البدويَّة ؛ الحداء والأظعان ، والتعريج على الديار ، والرمال والكثبان ، يقول ابن الخطيب[7] :

لقد رامَ كتمَ الوجدِ يومَ ارتحالِه ... ولكنَّ دمعَ العينِ باحَ بحالِه

فجادَ ولم يملك بوادرَ عبرةٍ ... حداهَا مع الأظعانِ حادي جمالِه

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٣٠٦ .

(٢) خيدع : الخداع المخاتلة والمخادعة ، وإظهار خلاف ما يخفى ، انظر : اللِّسان ، مادة (خدع) .

(٣) شعر يحيى بن حكم الغزال ، تحقيق : دكتور علي الغريب محمد الشناوي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط . الأولى ، ٢٠٠٤م ، ص١٦١ .

(٤) عضب : قاطع ، انظر : اللِّسان ، مادة (عضب) .

(٥) الغرار : حدّ السيف ، انظر : اللِّسان ، مادة (غرر) .

(٦) ذكير : ماض ، انظر : اللِّسان ، مادة (ذكر) .

(٧) ديوان ابن الخَطيب ، ٢/٤٨٣ .

وفيها يقول أيضاً[1] :

خليلـــيَّ هُبَّـــا فازجرَاهـــا وعرِّجَـــا   عليهـــا بكثبـــانِ الحِمَـــى ورمالِـــهِ
وإن غالَها حرُّ الـــهـــجـــيرِ فـــذكّرا   غضـــارةَ واديـــهِ ، وبـــردَ ظلالِـــهِ
وقولا لـــهـــا ريًّا فاكتـــافُ (ريَّـــةٍ)[2]   مـــامُّ نوالـــا فابشِـــرِي باحتلالِـــهِ

وهي صورة استلهمها ابن الخطيب من بيئةِ البداوة ، التي وصف منها مشهد الحمول والظعائن والتوديع ، ومشهد المطيِّ وقد أهلكها الحرُّ ، وهي تقطع الرمال والكثبان ، وذكر حثَّ الرواحل على السَّير بذكر الأهل والوطن ، وجاء بهذه الصُّورة البدويَّة في سياق التشوق للوطن والديار ، لأنها أدَلُّ بإيحاءاتها على شعور الحنين ، إلى ما حنّ ابن الخطيب إليه ، وهو (ريَّة) بالأندلس التي ذكر أنها منتوى الرحلة ومقصدها .

وصورَّ الشعراءُ الأندلسيُّون ما كان متعلِّقاً ببيئة البداوة ، من مساكن البدو ، ومنها (الخيام) و (القباب) ، يقول لسان الدين بن الخطيب[3] :

فجيـــادُهُ للآملـــينَ مراكـــبٌ   وخيامُـــهُ للقاصـــدينَ أرائـــكُ

ويقول ابن زُمرُك[4] :

حيثُ القبـــابُ الحمـــرُ تُرفـــعُ للقِـــرَى   قـــد عـــامَ في أرجـــائهنَّ المنـــدلُ

وقد استثمر الشاعران الصورة البدويَّة للخيام والقباب المضروبة في سياق المدح .

وصورَّ الشعراءُ الأندلسيُّون (الهوادج) ، يقول ابن عبد ربِّه[5] :

بكيـــتُ حـــتى لم أدعْ عـــبرةً   إذْ حملُوا الـــهـــودجَ فـــوقَ القلـــوص

---

(١) ديوان ابن الخطيب ، ٤٨٣/٢ .

(٢) ريّة : بفتح أوَّله وتشديد ثانيه كورة واسعةٌ بالأندلس ، متصلة بالجزيرة الخضراء ، وهي قبلي قرطبة ، انظر : معجم البلدان ، ١١٦/٣ .

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٤٧٣/٢ .

(٤) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٦٣ .

(٥) ديوان ابن عبدربه ، ص١٥٦ .

كما صوَّروا أيضاً تقويض الرحال ، يقول ابن الخطيب مستعيراً هذا المشهد في وصف الشباب الذاهب من قصيدة أوَّلها[1] :

تذكّرتُ عهداً للشَّبابِ الذي ولّىَ فصابَ له تسكابُ دمعي وانهلاً

ثم يقول[2] :

وما كان إلاّ كالخيالِ لنائمٍ ألمَّ ويا سَرعانَ ما قوَّضَ الرَّحْلا

ومما كان من متطلبات المعيشة في البيئة البدويَّة وجودُ المرقب ، ((والمرقب والمرقبة : الموضعُ المشرف يرتفع عليه الرَّقيب وما أوفيت عليه من علمٍ أو رابيةٍ لتنظر من بعد ، وارتقب المكان علا وأشرف . . . والمرقبة هي المنظرة في رأسِ جبلٍ أو حصن))[3]، ورقيب القوم حارسهم وهو الذي يشرف على مرقبةٍ ليحرسهم ، وقد مدح ابن درَّاج بهذه الصفة المأخوذةِ من صُلبِ بيئةِ البداوة ، فقال[4] :

هل من يُساميهِ وأقربُ ما يُرى منّا إذا كانَ الغمامَ الصَّيِّبا[5]

عُذنا به من لا تعوَّدَ مَرْقباً منه فاصبحَ في ذَراه[6] مَرْقَبا

فقد كانت الحراسة وشيمُ البرق من متطلبات بيئة البداوة التي قلَّ فيها المطر ، و((شيمُ البرق كان بمثابةِ الربيئةِ لا يكون إلاَّ من الأفضل والأكرم))[7]، والربيئة هو الذي يطَّلع على شرف لينظر للقوم لئلاَّ يدهمهم عدو ، ولا يكون إلاَّ على جبلٍ أو شرف ينظر منه وهو عين القوم[8] ، ومن هنا كان رَبْط ابن

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٧٦٦/٢ .

(٢) المصدر السَّابق ، ٧٦٧/٢ .

(٣) انظر : اللِّسان ، مادة (رقب) .

(٤) ديوان ابن درّاج ، ص٣٢١ .

(٥) الصَّيِّبا : الصوب ، نزول المطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (صوب) .

(٦) ذراه : أعلاه . انظر : اللِّسان ، مادة (ذرا) .

(٧) الشعر الجاهلي ، دكتور محمد أبو موسى ، ص١٣٧ .

(٨) انظر : اللِّسان ، مادة (ربأ) .

درّاج بين الغمام ونزول المطر ، والإشراف لحماية القوم من الأعداء ، فجمع في ممدوحه بين شرفي الكرم والرِّعاية ، التي يُمدح بها البدو الذين كانوا يقومون بذلك .

والتطلُّع للبرق من متطلبات بيئة البادية التي كان يتشوَّقُ أهلها للمطر ، ويعدُّون البرقاتِ ليروا أين يغدو السحاب وأين يهطلُ المطر ، لأن في ذلك كلأهم ، وإمراعهم ، ورعيُ دوابِّهم ، ولذلك فإن هذه المعرفة البدويَّة بمكان نزول المطر ، مرتبطةٌ بالبيئةِ البدويَّة ، وانتقلت إلى الأندلس مع الموروث الشِّعري القديم ، وداخلت صور الشُّعراء الأندلسيين ودلَّ ذلك على مدى علمهم بهذه العادةِ القديمة وما تدلُّ عليه من كرم الرِّيادة ، وعلمهم أيضاً بالنجوم ومساقط الأنواء ، ممَّا هو مرتبطٌ بها ، ودالٌّ على سعةِ اطِّلاعهم وحبِّهم للموروث القديم وهي معرفة مدح الشعراء بها أنفسهم ، فقال ابن خفاجة يصف تطلُّعه للسَّماء ، ليرى البرق المنذر بالمطر[1] :

أقلِّبُ طَرْفي في السَّماءِ لعلَّني ... أشيمُ[2] سَنَا برقٍ هُناك تطلَّعَا

وذكر ابن خفاجة في موضع آخر ، ارتباط البرق بالمطر ، وهو ما أشار به إلى ثقة البدو بالرَّعي إذا رأوا البرق والسَّحاب وعرفوا أين يمطر ، فقال[3] :

أشيمُ به سَنَا برقٍ يمانٍ ... يُحفِّزني إلى المرعى الخصيبِ

وقد جاء ابن خفاجة بهذه الصُّورة على سبيل الاستعارة في سياق نعتِ الممدوح بالكرم ، وهي قصيدةٌ قال في أولها[4] :

بمثل علاكَ من ملكٍ حسيبِ ... عَدَلتُ إلى المديحِ عنِ النَّسيبِ

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص١٢٨ .

(٢) أشيم : شام السحاب والبرق شيماً نظر إليه أين يقصد وأين يمطر ، وشمت البرق إذا نظرت إلى سحابه أين يمطر ، انظر : اللِّسان ، مادة (شيم).

(٣) ديوان ابن خفاجة ، ص٩٢ .

(٤) المصدر السَّابق ، ص٩١ .

ولأهميّة الحيا والغيث ، والحاجة الملّحةُ للماء في البوادي كان شيم البرق مهمًّا .

واستتبع ذلك أن يكثر في الشعر البدويّ الدُّعاء بالسقيا لأنه دعاءٌ فيه خيرٌ ، وحياةٌ وخصبٌ ونماءٌ وبركة .

والدُّعاء بالسقيا الذي كان مرتبطاً بالحاجة البدويَّة كثيرٌ في الشعر القديم ، ولكنه لم يتوقف عند حدودِ الدلالاتِ الملّحة للمعيشة ، فقد استسقى الشعراء لديار من يحبّون ـ وإن كانت ممرعةً خصبة ـ لأنهم أرادوا ما وراء معاني المطر من دلالاتِ الحياة ، والبركة والرّعاية ، ولذلك استسقوا للقبور أيضاً ، كما استسقوا لذكريات مَضَتْ ، وزمانٍ تولّى .

وقد كثرت هذه الصيغة البدويَّة في الشعر الذي انتمى أصحابه لبيئةٍ حضريَّة ، ولم تقف عند حدود الصحراء التي أنبتتها ، مع أنَّ البيئة الأندلسيَّة ـ في معظمها ـ بيئة خصبة ذات أمطارٍ وأنهار ، ولكنَّ المعنى والدلالة خلف الدُّعاء بالسُّقيا المستلهم من البيئة البدويَّة ، ظلَّ ملازماً للشعر ، ملازمته في القلب لمعاني المطر والحيا ، وما فيه من خصب وإمراع وربيع ، وجمال ، وخير ، فاستسقى الشعراءُ الأندلسيُّون لديارهم ومن أحبُّوه فيها ، وما أحبّوه فيها ، يقول أبو جعفر ابن اللمائي[1] :

سقى بلداً أهلي به وأقاربي ... غوادٍ بأثقالِ الحيَا وروائحُ

وهبَّتْ عليهم بالعشيِّ وبالضُّحى ... نواسمُ بردٍ والظِّلال فوائحُ

وقد توسَّعت دلالات السُّقيا كثيراً ، فاستسقى الشعراء الأندلسيُّون لزمانٍ طيب وأيَّام مضت ، يقول ابن شهيد[2] :

سُقيا لطيبِ زماننا وسرورِه ... وعزيزِ عيشٍ مسعفٍ بغريرِه[3]

---

(١) نفح الطيب ، المقرّي ، ٥٤٨/٣ .

(٢) ديوان ابن شهيد ، ص٨٣ .

(٣) غرير العيش : أوّله وأفضله ، انظر : اللّسان ، مادة (غرر) .

وسقيا الزمان ، أراد بها زمناً كانت فيه غضارة حياةٍ ونضارةُ عيش .

وصوَّر الشعراء الأندلسيُّون من معالم البيئة البدويَّة (حيواناتها) ، وكان أكثر هذه الحيوانات الصحراويَّة حضوراً في هذا الشعر (الإبل) ، وأكثر ما وصفوه منها : قوتها ، ونجابتها ، وطريقة سيرها ، يقول ابن الأبَّار[1] :

(نجبٌ غدت بــهمُ تخبُّ[2] وتوضعُ[3])

ويقول أيضاً[4] :

في ذمَّـــةِ الله الأُلى أمُّـــوا الفَـــلا بالعيسِ تَخدي[5] والصواهل تُمْـزَعُ[6]

وكذلك يقول يحيى بن حكم الغزال[7] :

وأحمدَ لـمَّـا أنكرَ الـدَّارَ أرقلـت[8] بـــه عيســـجورٌ[9] للفـــلاةِ عبـــورُ

كما استلهموا في صورهم مشهد دهن الإبل بالقطران إذا جربت ، ومن ذلك قول ابن درّاج يمدح[10] :

ومولى كما تجلو المصـابيحُ في الـدُّجى ورأي كما يشفي الهناءُ[11] من النَّقبِ[12]

---

(١) ديوان ابن الأبَّار ، ص٣٦٤ .

(٢) تخب : الخبب ضربٌ من العدو ، انظر : اللِّسان ، مادة (خبب) .

(٣) توضع : الوضع ضربٌ من سير الإبل دون شدّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (وضع) .

(٤) ديوان ابن الأبَّار ، ص٣٦٤ .

(٥) تخدي : الوخد ضربٌ من سير الإبل وهو سعة الخطو في المشي ، انظر : اللِّسان ، مادة (وخد) .

(٦) تمزع : المزع شدّة السير ، انظر : اللِّسان ، مادة (مزع) .

(٧) ديوان الغزال ، ص١٦٢ .

(٨) أرقلت : الإرقال ضربٌ من الخبب ، انظر : اللِّسان ، مادة (رقل) .

(٩) العيسجور : الناقة الصلبة السريعة القويَّة ، انظر : اللِّسان ، مادة (عسجر) .

(١٠) ديوان ابن درّاج ، ص١٨٣ .

(١١) الهناء : ضربٌ من القطران ، انظر : اللِّسان ، مادة (هنأ) .

(١٢) النّقب : القطع المتفرقة من الجرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (نقب) .

وصوَّر الشعراءُ الأندلسيُّون (الخيول) لأنَّها من أهم عدُد الحرب والصَّيد ، في البيئة البدويَّة ـ وغيرها أيضاً ـ واتخذ الشعراء من صورتها عند امرئ القيس منهلاً يستقون منه ، ومنه قول محمد بن الربيع يشبه خيله بالذّئب ويصفها بالضمور[1] :

ومقورةٍ[2] مثلُ السَّراحينِ[3] شُزَّبٍ[4] تكرُّ على سيرِ الحتوفِ وتعطفُ

وصوَّر الشعراء الأندلسيُّون (الحيَّات) التي كانت تكثر في البوادي ، فقال ابن حمديس مشبِّهاً انسياب الماء بانسلال الحيَّة[5] :

وتنسابُ منه حيَّةٌ غير أنَّها تطولُ على قدرِ المسابِ وتعرضُ

كما صوَّروا (الضَّبَّ) و (الورلَ) وهما من الدواب التي تكثر في بيئة الصحراء ، فقال ابن هانئ يصف قائدُ جيش العدوّ[6] :

برزٌ بصفحته لولا تقدُّمُهُ لم يُعرف الليثُ بين الضبِّ والورلِ[7]

كما أكثر الشعراءُ الأندلسيُّون من استلهام (صورة القطاة) في معرض أوصافٍ وسياقات شتَّى ، وهي تعرف في البيئة البدويَّة بمشيتها المميَّزة واهتدائها للمياه ، وصوتها المشبه لفظ اسمها ، فقال ابن حمديس يصف نساءً[8] :

غيدٌ زُرَيْنَ[9] على القَطَا في مَشْيِها فلهنَّ ساحاتُ القلوبِ بطاحُ

---

(١) التشبيهات ، ابن الكتَّاني ، ص١٩١ .

(٢) مقورة : ضامرة ، انظر : اللِّسان ، مادة (قور) .

(٣) السراحين : جمع سرحان وهو الذئب ، انظر : اللِّسان ، مادة (سرح) .

(٤) شُزَّبٍ : ضامرة . انظر : اللِّسان ، مادة (شزب) .

(٥) ديوان ابن حمديس ، ص٢٩٠ .

(٦) ديوان ابن هانئ ، ص٢٧٨ .

(٧) الورل : دابة على خلقة الضبّ إلاَّ أنه أعظم منه ، يكون في الرمال والصحاري ، انظر : اللِّسان ، مادة (ورل) .

(٨) ديوان ابن حمديس ص١٠٢ .

(٩) زرين عليها : قصّرن بها ، انظر : اللِّسان ، مادة (زري) .

وقال ابن الحداد يمدح[1] :

وقـد ورَدَتْ في غَمْـره نُهَّـلُ القَطَـا كما ازْدَحَمَـتْ في كَفِّـه قُبَـلُ الوفـدِ

وقد كثر ذكر النباتات الصحراويَّة من (شيح وعرار وغار ورند) وغيرها في الصُّور المستلهمة من البيئة البدويَّة عـنـد الشعـراء الأندلسيـين ، واستثـمـروا ما يحمله وجودها في الشِّعر من إيحاءات حنينيَّة بدويَّة في وصفِ عذريَّة الهوى وذكريات الصبابة والعشق ، يقول أبو القاسم بن قطبة[2] :

وعرِّج على النَّوار[3] إن كنتَ ذا هـوى فـإنَّ ربـاهُ مرتـعٌ للجـآذر
وصافح بـه كـفَّ البـهارِ[4] مسـلِّماً وقبِّـل عـرارَ الآسِ بـين النـواورِ

كما أكثروا من ذكر (الغضا) في معرض وصف الأشواق وتلهُّبها ، يقول ابن فُرْكُون[5] :

فكم بـاتَ في جمـرِ الغَضَـا[6] متقلِّبـاً وذكـركَ يُـذكي في جوانِحِـهِ جَمْـرا

واستلهم الشعراءُ الأندلسيُّون أيضاً صور النباتات البدويَّة في سياق وصف المرأة ، ومن ذلك قول أبي بكر بن عمَّار[7] :

غصـنٌ ولكـنَّ النفـوسَ رياضُـهُ رشـأٌ ولكـنَّ القلـوبَ عَـرَارُه[8]

---

(١) ديوان ابن الحدّاد ، ص٢٠٠.

(٢) مختارات ابن عزيم الأندلسي ، لعلي بن عزيم الغرناطي ، تحقيق : عبد الحميد عبد الله الهرامة ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ١٩٩٣م.

(٣) النُّوار : الزَّهر ، انظر : اللِّسان ، مادة (نور).

(٤) البهار : نبتٌ طيب الريح ، والعرار بهار البرّ ، انظر : اللِّسان ، مادة (بهر).

(٥) ديوان ابن فُركون ، ص١٠٤.

(٦) الغضا : شجر من أجود الوقود عند العرب ، وأهل الغضا أهل نجد لكثرته هنالك ، انظر : اللِّسان ، مادة (غضا).

(٧) المعجب ، المرّاكشي ، ص٨٧.

(٨) العرار : بهار البر ، وهو نبت طيب الريح ، انظر : اللِّسان ، مادة (عرر).

وفيها :

ويجودُ روضُ الحسنِ من وجناتِهِ   دمعي فيندى رنده[1] وبهارُه

فقد كانت البيئة البدويَّة ـ بكلِّ ما فيها ـ من أهمِّ مصادر الصُّور في الشعر الأندلسيّ ، يقول ابن راجح (ت : ٧٦٥هـ)[2] :

أمِنْ مطلعِ الأنوارِ لمحةُ لامحِ   تُعادُ لمفؤودٍ عن الحيِّ نازحِ
وهل بالمنى من موردِ الوصلِ يرتوي   غليلُ عليلٍ للتواصلِ جانحِ
فيا فيضَ عينِ الدَّمعِ مالكَ والحمى   ورندَ الحمى والشيحَ شيحَ الأشايحِ
مرابعُ آرامي ومَوردُ ناقتي   فسقياً لها سُقيا لناقةِ صالحِ
سقى اللهُ ذاكَ الحيَّ وَدْقاً فإنَّهُ   حمى لحاتِ العينِ عن لمحِ لامحِ
وأبدى لنا حُورَ الخيامِ تُزفُّ في   حُلى الحسنِ والحسنى وحَلْي الملامحِ

فتغنَّى الشاعر في بيئةِ الأندلس الحضريَّة ، وفي زمن متأخّر بالخيام ، والحيِّ ، والحمى ، والربع ، والمورد ، والشيح ، والرند ، والآرام ، وهي رموزٌ لحنينٍ شعريٍّ تنفس في جوٍ بدويّ .

ومن هنا . . نجدُ من الأمثلةِ السابقة أنَّ الصُّور في الشعر الأندلسيّ كانت تستلهمُ كثيراً من البيئةِ البدويّة ، فاتخذها شعراؤه مصدراً ثريًّا نهلوا من معينه ، فلم يكد الشعراءُ الأندلسيُّون يغادرون منها شيئاً وكثر تمثُّل بيئة البادية ، وتخيُّلها ، وتوظيف مشاهدها في سياقاتٍ متعدّدة .

معتقدات بدويَّة :

من مصادر الصّورة البدويَّة في الشعر الأندلسي ، ما كان للعرب قديماً من معتقدات كثيرةٍ كانوا يؤمنون بها في حياتهم ، ويعلّقون بها مصائرهم ، وهي معتقداتٌ أبطلها الإسلام ، ولكنَّها ظلَّت في دواخل النفسيَّة العربيَّة ، وتظهر من خلال الشعر وصوره .

---

(١) الرَّند : من أشجار البادية طيب الرائحة يُستاك به ، انظر : اللّسان ، مادة (رند) .
(٢) نفح الطيب ، المقّري ، ٨٦/٦ .

ومن هذه المعتقدات (تعليقُ التمائمِ والتعاويذ)[1] وقايةً من الحسد أو الجان أو الأمراض أو طلباً للشفاء ، يقول ابن سهل مادحاً ، مستعيراً صورة التمائم الجاهليَّة[2] :

علّقتُ أمداحَكَ الحُسْنى على أُذني تمائماً مِنْ جُنونِ العُدمِ تمنعُهُ

فاستلهم من المعتقد الجاهلي في الصورة التي جعل بها من قصائده في الممدوح ، واقياً يحميه من الفقر ، وأراد الهباتِ والعطايا مكافأة له عليها ، مشبِّهاً في ذلك مدائحه بالتمائم التي كانت تُعلَّقُ قديماً لتحمي ـ كما اعْتُقِد ـ من الجنون أو المرض أو العين وغيره .

وكذلك يقول ابن درَّاج مادحاً مستلهماً ، من هذا المعتقد الجاهليِّ[3]:

فعقدتَ في عنُقِ الضَّلالِ مواثقاً دانتْ بها الرُّهبانُ والأحْبَارُ
وكأنَّما كانت عقودَ تمائمٍ سَكَنتْ بها الأوجالُ والأذعارُ

ومن المعتقداتِ الجاهليّة البدويّة الأخرى :

(الاعتقادُ بالسَّانحِ والبارح)

---

(١) التميمة : خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق ، وقيل هي قلادة يجعل فيها سيورٌ وعُوذٌ ، والتميمة عوذة تعلّق على الإنسان ، وفي الحديث من علّق تميمة ، فلا أتمَّ الله له ، ويقال إنها خرزة كانوا يعتقدون أنّها تمام الدواء والشفاء ، وهي خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم ينفون بها النفس والعين بزعمهم فأبطله الإسلام ، وإياها أراد الهذلي بقوله :

وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارها ألفيت كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

وجعلها ابن مسعود من الشرك ، لأنهم جعلوها واقية من المقادير والموت ، وأرادوا دفع ذلك بها وطلبوا دفع الأذى من غير الله تعالى الذي هو دافعه فكأنهم جعلوا له شريكاً فيما قدَّر وكتب من آجال العباد والأعراض التي تصيبهم ، ولا دافع لما قضى ولا شريك له تعالى ، وتقدَّس فيما قدَّر . انظر : اللِّسان ، مادة (تمم) .

(٢) ديوان ابن سهل ، ص٢٣٧ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص٢٤٧ .

والسَّانحُ ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر والبارح ما أتاك من ذلك عن يسارك ، والسانحُ أحسنُ حالاً عندهم في اليمن من البارح ، فالسُّنْحُ اليمنُ والبركة ، والبارح يُتشاءم به ، قال أبو ذؤيب[1] :

(أُرجي لحبِّ اللقاء سنيحا)

وبعضهم يتشاءم بالسانح ، قال عمرو بن قميئة[2]:

(وأشأمُ طيرِ الزاجرينَ سنيحُها)

فقد كانت العرب تختلفُ في العيافة ، فمنهم من يتيمَّن بالسانح ، ويتشاءم بالبارح ، فأهل نجد يتيمنون بالسانح ، وأهل الحجاز يتشاءمون به ، وقد يستعملُ النجديُّ لغة الحجازي ، مثل عمرو بن قميئة ، وهو نجديّ[3] ، ويقول الجاحظ إنَّ أصل التطيّر ((إنما كان من الطير ومن جهةِ الطير إذا مرَّ بارحاً أو سانحاً ، أو رآه يتفلّى وينتف . . . فكان زجرُ الطير هو الأصل ، ومنه استعملوا ذلك في كلّ شيء))[4].

فالطِّيرَةُ مرتبطة بزجر الطير ((وقد عدَّ العلماء الطيرة والزجر في معنى واحد ، لأنَّ أصلهما أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير ثم يحكمون من حركته على ما سيحدث ويقع ، فالزجر والطيرة من ثمَّ شيء واحد))[5].

وقد ذكر الشعراء الأندلسيُّون زجر الطّير ، مما كان في معتقدات الجاهليَّة ، واستلهموا هذا المعتقد البدويَّ في سياقات مختلفة ، ومنها المدح ، يقول لسان الدين بن الخطيب[6] :

(١،٢،٣) انظر : اللِّسان ، مادة (سنح) .

(٤) الحيوان ، الجاحظ ، ٤٨٣/١ .

(٥) المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف : دكتور جواد علي ، ط . الثانية ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م ، ٧٨٦/٦ .

(٦) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٤١٥/١

زجرنـــا[1] بـــإبراهيمَ بُـــرءَ همومنـــا فلمَّـــا رأينـــا وجهـــهُ صـــدقَ الزَّجـــرُ

ويذكر ابن زمرك أيضاً الزجر الذي يُرى فيه اليمن ، فيقول[2] :

هنـــاءً بنصـــر الـــدينِ أنجـــز موعـــدًا زجرنـــا بـــه الطَّـــيرَ الميـــامينَ أســـعُدا

وفي هذا المعنى الذي يحوي هذا المعتقد الجاهلي البدويّ ، يقول ابن شهيد راثياً[3] :

عشـــنا ألـــيفينِ في بـــرِّ الهـــوى زمنـــاً حـــتى زَقَـــا[4] بَنوانـــا طـــائرُ الشُّـــوم

ويربط الشعراءُ الأندلسيُّون في التشاؤم الزجر بالغراب ، وقد كان من الطيور التي تطيَّر منها أهل الجاهليَّة ، إضافة لطيور الليل ومنها : البومة والصَّدى والهامة . . .[5] .

وكان العربُ يقولون : أشأم من غراب ، وأفسقُ من غراب ، وهو أخبث الطيور[6] ، يقول ابن خفاجة[7] :

فقلـــتُ وقـــد زجَـــرْتُ الطَّـــيرَ مهـــلاً فغربـــانُ العـــدوِّ إلى نعيـــبِ[8]

فذكر هذا المعتقد البدوي من الزجر ، والتطيّر بالغراب في غرض المدح ، ويقول ابن خفاجة في قصيدة أخرى مستلهماً صورة الغراب وسواده[9]:

وربَّ ليـــلٍ ســـهرتُ فيـــه أزجـــرُ مـــن جُنْحِـــهِ غُرابـــا

---

(١) زجرنا : الزجر للطير وغيرها التيمن بسنوحها ، والتشاؤم ببروحها ، والزجر نوع من الكهانة والعيافة ، انظر : اللِّسان ، مادة (زجر).

(٢) ديوان ابن زمرك ، ص١٣٢ .

(٣) ديوان ابن شهيد ، ص١٢٢ .

(٤) زقا : صاح ، انظر : اللِّسان ، مادة (زقا).

(٥) الحيوان ، الجاحظ ، ٢٩٨/٢ .

(٦) انظر : اللِّسان ، مادة (غرب) .

(٧) ديوان ابن خفاجة ، ص٩٣ .

(٨) النّعيب : صوت الغراب ، انظر : اللِّسان ، مادة (نعب) .

(٩) ديوان ابن خفاجة ، ص٣٣٨ .

فشبَّه سواد الليل بسواد الغراب ، وأخذ من المعتقد العربي البدويّ ، عادة الزجر ، للطَّير الذي شبه به الليل .

وأكثر ما يأتي الغرابُ في دلالات الغربةُ والفراقِ والبيـن ، ولذلك سمّوه ((غراب البين)) [1] ، قال عنترة[2] :

غـرابَ الـبين : مالـك كـلَّ يـومٍ تعانـدني وقـد أشـغلتَ بـالي

وفي مثل هذا المعنى يقول ابن درَّاج[3] :

نعبَ الغرابُ بـهـا فطـارَ بأهلـها سـرباً علـى مثـلِ الغـرابِ النَّاعـبِ

وقد كان العربُ يعتقدون أن عظام الموتى تصير هامةً فتطير ، وكانوا يسمُّون ذلك الطائر الذي يخرج من هامة الميت إذا بليَ الصَّدى[4] ، وكانت العرب تقول : إذا قتل قتيلٌ ، فلم يُدرك به الثأر خرج من رأسه طائرٌ كالبومة ، وهي الهامة ، والذَّكَر الصَّدى ، فيصيح على قبره : اسقوني ، اسقوني ، فإن قُتل قاتله كفَّ عن صياحِهِ[5] ، يقول ابن درَّاج ذاكراً هذا المعتقد الذي أشار به إلى كثرة ما أوقعه الممدوح في أعدائِهِ من القتل[6] :

وقواضـبٌ نبـذتْ إليـكَ لتتـركَنْ هـام الأعـادي للصَّـدى والـهـامِ

وذكروا الصَّدى والهام في معرض وصف الدور الخالية الموحشة ، يقـول ابن اللبانة الدَّاني[7] :

---

(١) الحيوان ، الجاحظ ، ٢/٣١٥ .

(٢) ديوان عنترة ، ص١٣٠ .

(٣) ديوان ابن درّاج ، ص١٩٦ .

(٤) انظر : اللّسان ، مادة (صدي) .

قال لبيد :

فلـيسَ النـاسُ بعـدكَ في نفـيرٍ وليـسـوا غـيرَ أصـداءٍ وهـام

ديوان لبيد ، ص٢٠٣ .

(٥) انظر : اللّسان ، مادة (صدي) .

(٦) ديوان ابن درَّاج ، ص٣١٤ .

(٧) شعر ابن اللبانة الداني ، تحقيق : محمد مجيد السعيد ، ١٣٩٧هـ ، ١٩٧٧م ، ص٨٩.

قصورٌ خَلَتْ مــن ســاكنيها فمــا بِهَــا سوى الأدمِ تمشي حولَ واقفــةِ الــدُّمى
يجيبُ بــها الــهامُ الصَّدى ولطالــمَــا أجــابَ القيــانُ الطــائرَ المترنِّمَــا

ومن مصادر الصُّورة البدويّة في الشعر الأندلسي :

العادات والتقاليد والشمائل العربيّة :

التي كانت أصيلة في البدو منذ القدم ، والتي جرى تداول صورها في معظم الشعر العربي وليس فقط في بيئتها البدويَّة القديمة ، فكان الشعراءُ الأندلسيُّون يتمثلون بها في سياقات مختلفة ، ممًّا دلَّ على عمق التأثر بالبداوة في الأندلس ، ومدى تداخل هذه العادات البدويَّة في الشعر الأندلسي الذي كانت من مصادره العظيمة ، ومن أهم هذه العادات المرتبطة بعمق أخلاقِ البداوة ، والشمائل الكريمة ، (شب نيران القرى) للضيوف في البادية ، ليراها المرتحلون فيطعمهم المضيفُ ، ويحسن وفادتهم ، وبذلك كان يتمدَّح الأعراب ويفخرون ، وقد اتخذت هذه العادة البدويَّة الكريمةُ طريقها إلى الشعر الأندلسيّ ، في سياقِ الفخر والمدح بالكرم،ومن الأمثلة على ذلك قول لسان الدين بن الخطيب[(١)]:

عرصــاتُ داركَ للضّــيافِ مبــاركٌ[(٢)] وبضوءِ نــارِ قــراكَ يُهــدى السَّــالكُ

وهي صورة بدويَّة جمع فيها إلى نار القرى التي يهتدي بها المدلجون في الفيافي ، العرصاتِ والمبارك ، وفي مثل هذه الصُّورة يقول أبو الحسن الششتري جامعاً بين رؤية نار القرى ، والإناخة في حياضِ صاحبها[(٣)]:

انــــخْ هُــــديتَ الأيْنُقَــــا فقــــد وصــــلتَ الأبرقَــــا
أمــــا تــــرى نــــارَ القــــرى علــــى رُبــــى ذاتِ النَّقَــــا

والرُّبا : ما ارتفع من الأرض وربا[(٤)]، وقد أوغل الشاعر في الصفة ، وجعلها

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٤٧٢/٢ .
(٢) المبارك : مبارك الإبل وهو الموضع الذي تبرك فيه الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (برك) .
(٣) ديوان أبو الحسن الششتري ، ص٥٥ .
(٤) انظر : اللِّسان ، مادة (ربا) .

ناراً مشبوبةً في مرتفعٍ من الأرض بما دلَّ به على عظمِ كرم صاحب النار ، لرغبته في أن يراها الأضياف من بعيد .

ويجمع الشعراءُ الأندلسيُّون في الشِّعر بين (نار القرى) التي يُراد بها الكرم ، و (نار الوغى) التي يراد بها الشجاعة ، وهما من أكثر الشيم العربيَّة البدويَّة التي يُمدح بها ، فقال ابن خفاجة[1] :

فيشبُّ بالـهـنـديِّ[2] نيرانَ الـوغى وبأعبقِ الـهـنديِّ[3] نـيرانَ القِـرى

وكذلك جمع الأعمى التطيلي بين نار الحرب ، ونار القرى ، الدالتين على الشجاعة والكرم ، فقال[4] :

ولا آنسُوا ناريـكَ للحـربِ والقِـرى يمينكَ في كـأسٍ ويُسْـرَاكَ في زنـدِ[5]

ومدح الشعراءُ الأندلسيُّون بشبِّ نار القرى في البوادي ، لأنَّ فيها دلالة الكرم ، الذي كان يظهر ويُمدح به أكثر في الشدّة ، وقت الجدب والمحل ، وهي أوقاتٌ تطرأُ كثيراً على بادية العرب وصحرائها ، فتمسكُ المطرَ السماءُ ويقلُّ الغيث ، ويجدب المرعى ، فتعظم حاجةُ الناس للطعام والكلأ ، ومن هنا كان العطاءُ والضيافة في هذا الوقت من أكثر الخلال التي يُمدح صاحبها ، وليس من يطعم زمن المحل كمن يطعم في أوقاتِ الخصب ، ولذا كان التفاوت في الكرم ، أو المدح به تبعاً لوجود هذه الخصلة أو نسبتها للممدوح حال الانعدام والقلّة .

فكثيراً ما مُدح بهذه الشيمةِ في الشعر البدوي القديم ، وظلَّت تتردد في الشعر الأندلسي رغم خلو البيئة ـ في معظمها ـ من هذه الصفة الغالبة في

---

(١) ديوان ابن خفاجة ، ص٥٣ .

(٢) الهنديّ : السيف الهندي ، المعمول ببلاد الهند ، وهو من السيوف المحكمة الصنع ، انظر : اللِّسان ، مادة (هند) .

(٣) الهنديّ : العود الطيب الذي من بلاد الهند ، انظر : اللِّسان ، مادة (هند) .

(٤) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٢٩ .

(٥) الزند : ما يقدح به النار ، انظر : اللِّسان ، مادة (زند) .

الصحراء ، وكانت توجد في هذا الشعر لدلالتها القويَّة على شدَّة الكرم ، وبلوغه في صاحبه مبلغاً عظيماً ، فقال ابن الخطيب مادحاً[(١)] :

إن بطَشَ الدَّهرُ بقومٍ حمُوا ... أو تعثرُ الأيَّامُ قالوا لعَا[(٢)]

أو جئتَهم في الجدبِ تبغي النَّدى ... سحُّوا عليكَ السُّحبَ الهُمَّعَا[(٣)]

وقد أشار ابن درّاج في مدحه إلى رجالاتِ العرب الذين عُرفوا بكرمهم زمان المحل ، وشدّة القحط ، فنمى الممدوح إلى نسبهم ، انتماء الفرع إلى أصله بالعراقة ، والفضائل ، فذكر هاشم بن عبد مناف أبو عبد المطلب جدّ النبي ﷺ الذي كان يسمّى عمراً وهو أوّل من ثرد الثريد وهشَّمه فسمي هاشماً ، فقالت فيه ابنته[(٤)] :

عمرُ العُلا هَشَمَ الثَّريدَ لقومه ... ورجالُ مكة مسنتونَ[(٥)] عجافُ

فقال ابن درَّاج[(٦)] :

فسُميّ جدُّكَ (عمرو الكرام) ... بهشمِ الثّريدِ زمانَ المحول

وذكر أيضاً في مدحه شيبة ، وهو شيبة الحمد مطعم طيرِ السَّماء ، فقال[(٧)]:

---

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٦٥٢ .

(٢) لعا : كلمة يُدعى بها للعاثر معناها الارتفاع ، وإذا دُعي للعاثر بأن ينتعش قيل لعاً لك عاليا ، انظر : اللّسان ، مادة (لعا) .

(٣) الهمَّعا : السائلة الماطرة (همع) .

(٤) انظر : اللّسان ، مادة (هشم) .

(٥) مسنتون : أصابتهم سنة وقحط وأجدبوا ، انظر : اللّسان ، مادة (سنت) .

وفي قصّة المثل إن البلاء موكل بالمنطق ، سأل الرجل أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ((أفمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه ، ورجال مكة مسنتون عجاف؟!)) . انظر : مجمع الأمثال ، ١/١٨ .

(٦، ٧) ديوان ابن درّاج ، ص١٦٥ .

وفي قصّة المثل (إن البلاء موكل بالمنطق) سأل الرجل أبا بكر ((أفمنكم شيبة الحمد مطعم طير السَّماء الذي كان في وجهه قمر يضيءُ ليل الظلام الدّاجي؟!)).

انظر : مجمع الأمثال ، ١/١٨ .

وشيبةُ ساقِي الحجيجِ الكفيلُ   بمأوى الغريبِ وقوتِ الخليل

واستتبع المدح بالكرم عن طريق التغني بعادات البداوة ، من شبّ نيران القرى والإطعام وقت المحل ، أن يُمدح بعظم الجفان أيضاً ، وهي أعظم ما يكون من القصاع ، وكانت العرب تجعلها لطعامها[1] ، فقال ابن هانئ[2] :

سَتَنْمي[3] لكَ الأقيالُ[4] من آل يعربٍ   ذوي الجفنات البيضِ والأوجهِ الغُرِّ

وقوله البيض أراد به أنها مملوءةٌ بالشحم والدهن فقد كانوا يقولون الجفنة الغراء أي البيضاء المملوءة شحماً ودهناً[5] ، فوصفه بأنه ملك ينتسب إلى ملوكٍ عُرفوا بسماحتهم وإضافتهم العرب في الجفان أو القصاع البيض المملوءة دهناً ، وهو ما كان يُمدح به البدو ، ويتفاخرون به .

ويشير وجود هذه الشمائل والصفات البدويّة في الشعر الأندلسيّ على تأصُّل عادات البدو ، وتقاليدهم في هذا الشعر ، الذي ظلّ أصحابه ، يفخرون ويمدحون مستلهمين من العادات البدويّة ، التي دلّت فيه على ذات المعنى ، وإن اختلف الزمان والمكان ، يقول ابن الزّقاق[6] :

الموقدونَ على الثنيّةِ[7] نارَهم   للطارقين إذا دَنَى السُّفَراءُ

والمالئونَ من السَّديفِ[8] جفائَهم   لهم إذا شملتْهُمُ اللَّأْوَاءُ[9]

---

(١) انظر : اللّسان ، مادة (جفن) .

(٢) ديوان ابن هانئ ، ص١٥٧ .

(٣) ستنمي : سترفع وتسند ، انظر : اللّسان ، مادة (نمي) .

(٤) الأقيال : الملوك ، انظر : اللّسان ، مادة (قيل) .

(٥) انظر : اللّسان ، مادة (جفن) .

(٦) ديوان ابن الزّقاق ، ص٦٨ .

(٧) الثنيّة : منقطع الوادي والجبل ، ، ومعاطفه ، انظر : اللّسان ، مادة (ثني).

(٨) السديف : لحم السنام ، وفي حديث وفد تميم :

ونطعم الناس عند القحط كلهم   من السَّديف إذا لم يؤنس الفزعُ

الفزع : السحاب ، أي نطعم الشحم في المحل ، انظر : اللّسان ، مادة (سدف).

(٩) اللّأواء : الشدّة وضيقُ المعيشةِ والقحط ، انظر : اللّسان ، مادة (لأي) .

واستتبع معنى الكرم (وصف عطايا الممدوح وهباتِه) التي أخذت في الشعر الأندلسيّ ـ غالباً ـ منحىً بدويًا ، ذكرت فيه الإبل والماشية ـ ممَّا استلهمه الشعراء من العادات البدويَّة ـ في بيئة أندلسيَّة ، عرفت نعمة الخزّ والديباج ، والجواري الحسان ، والقصور والدور والبساتين ، وغيرها . . . ممَّا كان الملوك يهبونه .

فقال ابن هانئ يمدح[1] :

الواهبينَ حمىً[2] وشُولاً[3] رُتَّعاً وأباطحاً[4] حُوًّا[5] وروضاً مُعْشِبَا

ويذكر ابن هانئ هذه العطايا البدويَّة من جملة هبات الممدوح في قصيدةٍ ثانيةٍ قال فيها[6] :

تأتي عطاياهُ شتَّى غيرُ واحدةٍ كما تدافعَ موجُ البحرِ يصطفقُ

وذكر من هذه العطايا ، الأموال ، والرماح ، والسيوف ، والتروس ، والدروع ، والقسيّ ، ثم قال[7] :

والوشيُ والعَصْبُ[8] والخيماتُ يضربُها بالبدوِ حيثُ التقى الرُّكبانُ والطُّرُقُ

وفيها[9] :

(١) ديوان ابن هانئ ، ص٤٧ .

(٢) الحمى : أحميت المكان فهو محمى إذا جعلته حمى ، انظر : اللِّسان ، مادة (حما).

(٣) الشيول : الإبل ، انظر : اللِّسان ، مادة (شول) .

(٤) أباطحاً : جمع أبطح وهو الميلُ الواسع فيه دقاق الحصى ، وقيل بطحاء الوادي ترابٌ لينٌ ممَّا جرّته السيول ، انظر : اللِّسان ، مادة (بطح) .

(٥) حُوّاً : الحوّة : سواد إلى الخضرة ، وقيل حمرة تضرب إلى السواد ، انظر : اللِّسان ، مادة (حوا) .

(٦) ديوان ابن هانئ ، ص٢٣٥ .

(٧) المصدر السَّابق ، ص٢٣٦ .

(٨) العصب : ضربٌ من برود اليمن سمي عصباً ، لأن غزله يعصب ، أي يدرج ثم يصبغ ثم يحاك ، انظر : اللِّسان ، مادة (عصب) .

(٩) ديوان ابن هانئ ، ص٢٣٦ .

والماءُ والرَّوضُ ملتفُّ الحدائق والـ ... سَّامي المشيَّدُ والمكمومةُ[1]السُّحقُ[2]
والشدقميَّةُ[3]دُعجاً[4]في مبارِكِها ... كأنَّها في الغزيرِ[5]المكلِ[6]الغسقُ[7]

ومن الشيم والعادات البدويَّة التي كان العربُ يمدحون بها ويرون في المدح بها مدحٌ بالعزَّة والقوّة والمنعة ، (حماية الجار) ، وهي شيمة بدويَّة ، ظلَّ الشعراء الأندلسيُّون يستلهمونها في مدائحهم ، فقال الأعمى التطيلي[8]:

من المانعين الدَّهرَ حَوزةَ[9] جارِهم ... وأشلاؤُه بينَ الخطوبِ نهابُ

فمدح بحماية الجار ، وقد تناهبته النوائب ، وفي ذلك دلالة على عظم منعتهم وعزِّهم ، وفي مثل هذا المعنى البدويّ افتخر ابن زمرك بقوله[10]:

وإنِّي وإن كنت الممنَّعَ جارهُ ... لتسبي فؤادي أعينٌ وثغورُ

ومن العادات البدويَّة التي تداخلت في الصُّور الشعريَّة الأندلسيَّة ، (ضرب القداح بالميسر) وهي عادة جاهليَّة حرَّمها الإسلام ولكنَّ معانيها ظلَّت تُتداول في الشعر ، وتُستلهم في كثيرٍ من سياقات المدح ، ومنه قول الأعمى التطيلي يمدح[11] :

---

(١) المكمومة : النخل ذات الطلع ، والكم : الطلع ، انظر : اللِّسان ، مادة (كمم) .

(٢) السحق : النخل الطوال ، انظر : اللِّسان ، مادة (سحق) .

(٣) الشدقميَّة : نياقٌ منسوبة إلى شدقم وهو فحل النعمان بن المنذر ، انظر : النِّسان ، مادة (شدقم) .

(٤) دعجاً : سوداً ، انظر : اللِّسان ، مادة (دعج) .

(٥) الغزير : الكثير ، انظر : اللِّسان ، مادة (غزر) .

(٦) المكلئ : الكثير الكلأ وهو العشب ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلأ) .

(٧) الغسق : ظلمة أوَّل الليل ، انظر : اللِّسان ، مادة (غسق) .

(٨) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٩ .

(٩) حوزة : حمى حوزته أي ما يليه ويحوزه ، انظر : اللِّسان ، مادة (حوز) .

(١٠) ديوان ابن زُمْرُك ، ص٤٢٥ .

(١١) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٢٠٧ .

من الأراقمِ صالوا كلَّ يومِ وغى   إذ كلُّ أرقمَ يعدو فوقَ تنِّينِ
فازت قداحُ أبيهم حينَ أرسلَها   بكلِّ عِلقٍ من العلياءِ مكنونِ

وقال ابن فُركون مادحاً أيضاً[1] :

إمامٌ له القِدْحُ المعلَّى إذا ارتمت   قداحٌ وأعلامُ الملوكِ تجيلُها

كما جاء ابن درَّاج بصورة ضرب القداح في سياق وصفه خالص المودَّة لمن يمدح ، فقال[2] :

وإن تبرمِ[3] الأيسارُ[4] في أزمانهم   فأحِبْ بأيسارٍ[5] قمرتُ[6] لهم يُسري

أراد أن يقول : إنَّه جعل نفسه لهم مقامرة .

واستلهم الشعراءُ الأندلسيّون في صورهم أيضاً من عادة (الاحتباء البدويَّة) ، وهي ((الاشتمالُ بالثوب وفيه قالوا : الاحتباءُ حيطانُ العرب ، لأنه ليس في البراري حيطان ، فإذا أرادوا أن يستندوا احتبوا لأن الاحتباء يمنعهم من السقوط ، ويصير لهم كالجدار)) [7] ، وقد كانوا يكنّون عن الحلم بالاحتباء ((وفي حديث الأحنف وقيل له في الحرب : أين الحلم ؟ فقال : عند الحُبى ، أراد أنَّ الحلم يحسنُ في السلم لا في الحرب))[8]، فقال الأعمى التطيلي في هذا المعنى[9] :

---

(١) ديوان ابن فُركون ، ص٢٢١ .
(٢) ديوان ابن درَّاج ، ص٢٩٢ .
(٣) تبرم : لا تدخل مع القوم في الميسر ، انظر : اللِّسان ، مادة (برم).
(٤) الأيسار : جمع يسر وهو السماحة والانقيادُ واللين ، انظر : اللِّسان ، مادة (يسر).
(٥) الأيسار : من الميسر وهو اللعب بالقداح ، وهو من القمار ، انظر : اللِّسان ، مادة (يسر) .
(٦) قمرت الرجل : إذا لاعبته في القمار فغلبتُه ، انظر : اللِّسان ، مادة (قمر).
(٧،٨) انظر : اللِّسان ، مادة (حبا) .
(٩) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٨٢ .

قومٌ تُحامي المنايا الحمرُ دونهمُ إذا احتبُوا وتحامَاهُم إذا زَحَفُوا

كما قال لسان الدين بن الخطيب مكنّياً بهذه العادة البدويَّة عن العز والوقار[1] :

قومٌ إذا لاثُوا العمائمَ واحتبُوا ذلَّت لعزِّهمُ ذوُو التِّيجانِ

ومن العاداتِ البدويَّة التي استقى منها الشعراءُ الأندلسيُّون في صورهم ، (عادة البكور للصَّيد) التي ترددت في شعر امرئ القيس ، وذكرها الشعراءُ الأندلسيُّون كثيراً ، ودلُّوا بها على همتهم ونشاطهم وفتوَّتهم ، فقال ابن حمديس[2] :

وساميةِ الألحاظِ للصَّيدِ قُرِّبتْ وقد نامَ عنَّا اللَّيلُ وانتبهَ الفجرُ

بكرنا على أكتادِهَا[3] نُدرِّي بها طرائدَ معموراً بها البلدُ القفرُ

وهكذا نجدُ أنَّ الشعراءَ الأندلسيين استلهموا في صورهم ، من المعتقداتِ والعادات البدويَّة ، التي كانت مصدراً مهمًّا من مصادر هذه الصور .

فظلَّت تُتَداول في الشعر الأندلسيّ ، لأنَّها تحمل دلالاتها على الشمائل والأخلاق العربيَّة ، وعلى موروثاتٍ اعتقاديَّةٍ قديمة كان توظيفها في الصورة يخدم السياق والغرض المُراد ، ودلَّ تداخلها في هذا الشعر على عمقِ التأثر الأندلسيّ بالموروث البدويِّ القديم .

الموروث الشعري القديم ، والأمثال :

ومن أهم مصادر الصورة في الشعر الأندلسيّ الموروث الشعري الجاهلي والبدويِّ القديم ، الذي استلهم منه الشعراء الأندلسيُّون كثيراً ، وتداولوا معانيه ، ونهلوا من أخيلتِهِ وصوره وصيغِه ، مما كان ظاهراً في وجود مواضيع تناولها

(١) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٥٧٦ .

(٢) ديوان ابن حمديس ، ص١٧٧ .

(٣) أكتادها ، الكتد الكاهل ، وهو مجمع الكتفين من الفرس ، انظر : اللِّسان ، مادة (كتد) .

الشعر الأندلسيُّ ولم تكن تحظى بها ـ غالباً ـ البيئة الأندلسيَّة ، من وصف الصحراء ومهالكها ، وما يتعرّض له الرَّكبُ المرتحلون في مجاهلها من مشاقّ وأخطار ، ووصف الأطلال والوقوف عليها ، ووصف الإبل والظعائن والحمول ، ومشهدُ تقويض الخيام . . . وغيرها .

وكان ظاهراً هذا التأثر أيضاً في وجود عناصر صحراويَّة كثيرة ، تداخلت في الخيال الشعري الأندلسيّ ، فظهرت من خلال الصُّور في سياقاتٍ متعدّدة ، ويُعدُّ ما ذكرناه سابقاً في هذه الدراسةِ من شعر أندلسي بدويّ ، دليلاً قويًا على عمق التأثر بالموروث الشعري القديم .

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك ، استلهام الشعراء الأندلسيين كثيراً من صور امرئ القيس ومنها وصف الليل في قوله[1] :

فيالك من ليلٍ كأنَّ نجومَهُ ... بأمراسِ[2] كتّانٍ إلى صُمِّ[3] جندلِ[4]

فقال سعيد بن العاص[5] :

فما بالُ صُبحي قد تقاربَ خطوُهُ ... فأبطا حتّى ليسَ يُرجى قدومُه

كأنَّ نجومَ اللّيل قيّدَها الدُّجى ... وأوقَفَها في موضِع لا تُريمُه[6]

وتأثر الشعراء الأندلسيّون بصورة امرئ القيس في قصيدته اللاميَّة عندما قال[7] :

سموتُ إليها بعدما نامَ أهلُها ... سموَّ حبابِ الماءِ حالاً على حالِ

---

(١) ديوان امرئ القيس ، ص٥٠ .

(٢) الأمراس : الحبال ، انظر : اللّسان ، مادة (مرس) .

(٣) الصمّ : الصلب ، انظر : اللّسان ، مادة (صمم) .

(٤) الجندل : الصخرة ، انظر : اللّسان ، مادة (جندل) .

(٥) شعر بني أمية في الأندلس ، السيد أحمد عمارة ، ص٤٧٧ .

(٦) لا تريمه : لا تبرحه ، انظر : اللّسان ، مادة (ريم) .

(٧) ديوان امرئ القيس ، ص١٣٧ .

فقال ابن شهيد[1] :

دنـــوتُ إليـــه علـــى رِقْبـــةٍ دنـــوَّ رفيـــقٍ دَرَى مـــا الـــتَمَسْ
أدبُّ إليـــه دبيـــبَ الكَـــرى واسْمُـــوا إليـــه سمـــوَّ الـــنَّفَسْ

وعلّق المقّري على ذلك بقوله : ((فاختلسه اختلاس النسيم لنفحةِ الأزهار واستلبه بطلفٍ استلاب ثغر الشمس لرضابِ طلِّ الأسحار ، فلطَّفهُ تلطيفاً يمتزجُ بالأرواح ويغني في الارتياح عن شُربِ الرَّاح))[2] .

وقد كان التأثُّر بصور امرئ القيس كثيراً في الشعر الأندلسيّ ، مما دلَّ على الإعجاب الشديد بشعره ، ومن الأمثلة على ذلك قول أبي جعفر الألبيري[3]:

تريـــكَ قـــذًى علـــى رِدفٍ تجاذبُـــهُ كخوطةٍ في كثيبِ الرَّمـــلِ قـــد نبَتـــتْ
ريَّا القرنفـــلِ في ريـــحِ الصَّـــبا ســـحراً يضوعُ منـــها إذا نحـــوي قـــد التفتـــتْ

ويذكر المقّري أنه ((عقد بهما ألفاظ قول امرئ القيس))[4]:

إذا التفتـــت نحـــوي تضـــوَّعَ ريحُهـــا نسيمَ الصَّـــبا جـــاءت بريَّـــا القرنفـــلِ

وقد استقى الشعراء الأندلسيُّون من معظم الشعر الجاهلي ، وكان هذا الموروث الشعري القديم ، مصدراً غنيّاً من مصادر الصُّور في الشعر الأندلسيّ ، ومن الأمثلة على ذلك قول حازم القرطاجني[5] :

وكـــم ليلـــةٍ قاســـيتها نابغيَّـــةٍ إلى أن بـــدت شـــيباً ذوالبـــها شُـــمْطَا

فقوله (نابغيَّة) إشارة لقول النابغة الذبياني يصف ليلةً طويلة[6]:

---

(١) ديوان ابن شهيد ، ص٨٨ .
(٢) نفح الطيب ، المقّري ، ١٩٧/٣ .
(٣،٤) المصدر السابق ، ٦٨٤/٢ .
والبيت في ديوان امرئ القيس ، ص٢٥ :
إذا قامتـــا تضـــوَّعَ المســـكُ منـــهما نسيم الصَّبا جـــاءت بريَّـــا القرنفـــلِ
(٥) ديوان حازم القرطاجني ، ص٦٩ .
(٦) ديوان النابغة الذبياني ، ص٤٣ .

كليني لـهـمٍّ يـا أميمـةَ ناصـبِ   وليـلٍ أقاسيـهِ بطـيءِ الكواكـبِ
تطاولَ حتى قلتُ ليسَ بـمـنـقـضٍ   وليسَ الـذي يهـدي النجـومَ بآيـبِ

وفي قوله (نابغيَّة) والاكتفاء بالإشارة في هذا القول لأبيات النابغة وصورته للَّيل ، دلالةٌ على ثقافة الشاعر الأندلسي ، وثقته بثقافة المتلقي الأندلسي أيضاً ، ممَّا يعني أن الشعر القديم كان متشرباً في النفوس ، إذ يُكتفى بالإشارة إليه دون ذكره ، وهو دليل معرفةٍ قويَّة بالتراث ، واطلاع عظيم على الموروث .

وفي مثل هذه الطريقة ، في الإشارة إلى البيت دون ذكره إتكّاءً من الشاعر الأندلسيّ على معرفته ، ومعرفةِ المتلقي بالموروث الشعري القديم ، قول حازم أيضاً[1] :

لولا جميـلُ الصَّفحِ عنـهم أصـبحُوا   خـبراً هنـاكَ لمنجـدٍ ولمتـهمِ
يشـدُو لسـانُ الحـالِ في أطلالِهـم   مـا قـالَ حـارثُ جـرهمٍ في جـرهمِ

في إشارة إلى قول عمرو بن الحارث الجرهمي[2] :

كأنْ لم يكن بـين الحجـونِ إلى الصَّفا   أنـيسٌ ولم يسـمُر بمكَّـة سـامرُ
بلـى نحـن كنَّـا أهلَهـا فأبادَنـا   صـروفُ اللَّيـالي والجـدودُ العـواثرُ

ومن الأمثلة الأخرى على استلهام الموروث الشعري الجاهلي في صور الشعراء الأندلسيين قول ابن حمديس يصف الذباب الذي يقع على الإبل[3]:

يحـكُّ مـن دمِهَـا القَـاني يـداً بيـدِ   حـكَّ الظَّريـفِ بحنَّـاءِ بنـانَ يـدِ

وهو متأثر بصورة عنترة المشهورة للذباب في قوله[4] :

فترى الذُّبابَ بـهـا يغنِّـي وحـده   هَزِجَـاً كفعـلِ الشَّـاربِ المتـرنِّمِ
غـرِداً يسـنُّ ذراعَـه بذراعِـهِ   فعلَ الـمُـكبِّ على الزِّنـادِ الأجـذَمِ

---

(١) ديوان حازم القرطاجنّي ، ص١٠٧ .

(٢) تحرير التحبير ، ابن أبي الإصبع ، ص٣٨٤ .

(٣) ديوان ابن حمديس ، ص١٣٤ .

(٤) ديوان عنترة ، ص١٥٨.

وقد استلهم ابن هانئ ، قول عمرو بن كلثوم مفتخراً[1] :

إذا بلــغَ الفطـامَ لنـا صـبيٌّ　　تخـرُّ لـه الجبـابرُ سـاجدينا

فقال يمدح[2] :

وإنـك مـن معشـرٍ طفلُهم　　يُتـوَّجُ قبـل بلـوغِ الـحُـلُـمْ
ويسـمو إلى المجـدِ قبـلَ الفطـامِ　　فكيـف يكـونُ إذا مـا فُطِـمْ

وتداول الصُّور والصيغ قديم في الشعر ، وهي دلالة إعجابٍ بها ، فقد أعجب الشعراء منذ القدم بصورة زهير بن أبي سلمى[3]:

صحا القلبُ عن سلمى وأقصَر باطلُه　　وعُـرِّيَ أفـراسُ الصِّبا ورواحلُـه

فأُعجِبَ الشعراءُ الأندلسيُّون باستعارة الصحيان للقلب ، فقال ابن عبد ربّه[4] :

صحا القلبُ إلاّ خطرةٌ تبعثُ الأسَى　　لـهـا زفـرةٌ موصـولةٌ بحنـينِ

وأعجبوا ـ أيضاً ـ باستعارته الأفراس للصِّبا ، وما تدلُّ عليه من انطلاقٍ وفتوّةٍ وصبوة ، فقال لسان الدين بن الخطيب[5]:

واركضْ إلى اللّهو أفراسَ الصِّبا مَرَحَـاً　　إذا وجـدتَ لخيـلِ اللّهـو ميـدانا

والتأثّر بالموروث الشعري القديم في الشعر الأندلسيّ كثير فيه ، وقد أورد المقرّي في كتابه نفح الطيب ، أمثلةً له ، ومنها قوله[6]:

---

(١) شرح المعلقات العشر ، الزوزني ، ص٢٢٤.
(٢) ديوان ابن هانئ ، ص٣٣٢ .
(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص٦٤.
فقد قال طفيل الغنوي :
صـحا قلبـه والقصـر اليـوم باطلُـه　　وانكـره مـمَّـا اسـتفاد حلائلُـه
ديوان طفيل الغنوي ، ص١١٢.
وقد توفي زهير سنة (٦٠٩) ، كما توفي طفيل سنة (٦١٠)، فكان معاصراً له .
(٤) ديوان ابن عبدربّه ، ص٢٩٩.
(٥) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٥٨٣.
(٦) نفح الطيب ، المقّري ، ٢/٦٨٤ .

((ولأبي جعفر الألبيري أيضاً :

ولـولا نجـاءُ العـيسِ حـولَ ديارهـا غداةَ منًـى لم يبـقَ في الرَّكـبِ محـرمُ

ففـوقَ ذُرَا المتـنينِ بُـردٌ مهلـل وتحـتَ رداءِ الخـزِّ وجـةٌ مُعَلَّـمُ

عقد في الأوَّل قول قيس بن الحطيم :

ديارُ الـتي كنَّـا ونحـن علـى منًـى تحـوطُ بنَـا لـولا نجـاءُ الرَّكائـب

وعقد في الثاني قول ابن أخي ربيعة :

أماطتْ رداءَ الخـزِّ عـن حُـرِّ وجهها وأرختْ علـى المتـنينِ بُـرداً مهلَّـلا))

وقد كان الشعراءُ الأندلسيُّون على اطلاعٍ كبيرٍ بالموروث الشعري القديم ، وأحوال الشعراء ، وحياتهم ، وقصصهم ، وأخبارهم ، وأودعوا شعرهم كثيراً من هذه المعارف ، وكانت مصدراً ثريًّا من مصادره ، فقال ابن الجنّان يرثي والده[1] :

ولو أقدُّ صدارَ[2] الصَّدر عـن كبـدي لم يصبح الوجـدُ مـني فيـه منتصـفَا

وأشار بقوله (صدار الصَّدر) إلى ما كانت تتخذه النساءُ من صدار شعر بعد موتِ من يحبّون ومنهن الخنساء التي اتخذت صداراً من شعر بعـد موتِ أخيها صخر ، ولذلك استلهم ابن الجنَّان هذه الصّورة في الرثاء[3].

وقد ذكر الشعراء الأندلسيُّون في شعرهم ما يدلُّ على اطلاعهم على قصص الشعراء قديماً وأخبارهم وأنسابهم ، ومن ذلك قول ابن عبدون اليابري[4]:

---

(١) ديوان ابن الجنان ، ص١٩٩ .

(٢) كانت المرأة الثكلى إذا فقدت حميمها فأحدَّت عليه لبست صداراً من صوف ، انظر : اللّسان ، مادة (صدر) .

(٣) انظر : الكامل ، المبّرد ، ٣٠٨/٤ .

وفيه أن الخنساء روت لعائشة رضي الله تعالى عنها أن زوجها كان متلافاً وكانت كلما ذهبت إلى أخيها صخر ليعينها قاسمها ماله حتّى نهته زوجتـه عـن ذاك في الثـالثـة أو الرابعة ، أو قالت له أن يعطيها شرارها ، فأجابها :

والله لا أمنحهـــا شـــرارها ولـــو هلكـــت خرّقـــت خمارهـــا

واتـــخـــذت من شـــعـــرهـــا صـــدارهـــا

(٤) ديوان ابن عبدون ، ص١٩٥ .

وقد نشَرتْ من ذي القروحِ[1] وخالِـهِ[2] وعمرو بـن كلثـومٍ[3] عظامـاً بواليَـا

ويقول أيضاً ابن الخطيب ، ذاكراً زهيراً وهرم بن سنان والشريف الرضي ، في سياق المدح[4] :

فلـو رآكَ زهـيرٌ مـا تخلَّفَهـا غُرًّا على مـددِ الأحقـابِ في هـرمِ

ولـو تناسـى الرضـيُّ الـدَّهرُ ثم رأى أيَّـام سَـلْمكِ لم يحفـل بـذي سَـلَمِ

فأشار في البيت الأوّل إلى زهير بن أبي سُلمى ، وقصائده المشهورة في هرم ابن سنان[5] ، وأشار في البيت الثاني إلى الشَّريف الرضي ، وأراد بذي سلم كثرة قصائده الحجازيَّة[6] ، والمعروف أن الشَّريف الرضي كان من أهمّ الشعراء الذين تأثّر بهم الأندلسيُّون كثيراً[7].

---

(١) ذي القروح : هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي ، من أهل نجد ، سمي بذي القروح لأن ملك الروم أهداه حلّةً فيها سمّ ، لبسها امرؤ القيس ، فتقطع جلده من السمّ ، ولذلك يقول :

وبـدِّلتُ قرحـاً داميـاً بعـد صـحّةٍ فيالـك نعمـى قـد تحـوّل أبؤسَـا

انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص٤٧ .

(٢) خاله هو : مهلهل بن ربيعة ، أخو كليب الذي هاجت بمقلته حرب بكر وتغلب ، وسمي مهلهلاً لأنه هلهل الشعر أي أرقّه ، وهو خال امرؤ القيس ، وجدُّ عمرو ابن كلثوم أبو أمه ليلى وقد أسره عوف بن مالك بن ثعلبة ، ومات في إساره ، انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٦٥ .

(٣) عمرو بن كلثوم : من بني تغلب جاهليٌّ قديم ، وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة ، انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٢٠ .

(٤) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٥٣٣/٢ .

(٥) وقد كان جيّد شعره في هرم بن سنان المرّي ، انظر : الشّعر والشعراء ، ص٥٧.

(٦) وذي سلم : وادٍ بالحجاز ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت ، ٢٤٠/٣.

وقد أكثر الشريف الرضي من ذكره في شعره ، ومنه قوله :

سهم أصـاب ورامـيـه بـذي سـلمٍ من بالعراقِ ، لقـد أبعـدتِ مرمـاكِ

ديوان الشريف الرضي ، تحقيق : دكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٤م، ١٠٧/٢ .

(٧) انظر : خطبة ديوان ابن خفاجة ، ص٦ ، ١٤ .

ومن مصادر الصور في الشعر الأندلسيّ، التي استلهم منها الشعراء الأندلسيّون كثيراً (الأمثال القديمة)، والأصل في المثل التشبيه، ويُساق للاهتداء بما فيه من حكمة، وحسن توجيه، ومُثُلٍ أخلاقيَّة[1]، ((وكثيرٌ من الأمثال الجاهليَّة ما زالت دائرةً على ألسنةِ الناس، وفي وجودها دلالةٌ على أنَّ الأحوال التي قيلت فيها لا تزال قائمة، ودليل ذلك اعتبارُ الناس بها، والاستشهاد بها في المناسبات ...))[2].

ومن الأمثال الجاهليَّة الباقية حتّى اليوم: آخر الدواءِ الكيّ، ومواعيدُ عرقوب، وسبقَ السيفُ العذل، وتسمع بالمعيديّ خير من أن تراه ... وغيرها[3]، وقد يضرب المثل بشخصياتٍ جاهليَّة تركت أثراً في أيامها، مثل قولهم (أبلغُ من قسّ) ويراد به قسُّ بن ساعدة الخطيب الشهير[4].

ومن الشِّعر الأندلسيّ الذي استلهم في صوره من الأمثال العربيَّة القديمة، قول ابن درَّاج[5]:

ولا ألقوا عصا التَّسيار[6] حتّى عَفَتْ حَلَقْ البطان[7] من اللّقاءِ
ولا بلغُوا مُنَاخَ العيسِ إلاّ وفي الحلقومِ بالغةُ الذّماءِ[8]

---

(١) انظر: المفصل، دكتور جواد علي، ٣٥٤/٨.

(٢) المرجع السَّابق، ٣٦٢/٨.

(٣) المرجع السَّابق، ٣٦٣/٨.

(٤) المرجع السَّابق، ٣٦٨/٨.

(٥) ديوان ابن درَّاج، ص٤٥٤.

(٦) ألقى عصاه: أقام، انظر: اللِّسان، مادة (عصي).

(٧) (التقت حلقتا البطان) يقولون: البطان للقتب الحزام الذي يجعلُ تحت بطن البعير، وفيه حلقتان، فإذا التقتا فقد بلغ الشدُّ غايته، يُضربُ في الحادثة إذا بلغت النهاية .. انظر: مجمع الأمثال، الميداني، ١٨٦/٢.

(٨) الذّماء: بقية الروح، انظر: اللِّسان، مادة (ذمي).

فابن درَّاج يقول : إنه ألقى عصا التَّسيار ؛ ومعناه أنه أقام وترك الرحلة ، وهي من صيغ العرب[1] ، ويقول : التقت حلقتا البطان ، وهي من أمثال العرب التي تُضربُ إذا اشتدَّ الأمر ، لأنهَّم يشدُّون حزام البعير إذا اختلَّ الحمل أو أوشك أن يسقط ، وقد أخذه ابن درَّاج في سياقٍ آخر وهو : أنَّهم لم يتركوا الرِّحلة إلاَّ لمَّا طالت ، وبليت حلقتا بطان البعير من طول السَّير ، لأن السِّياق عنده هو أن يحدِّث أنَّ أمراً صعباً مطلوباً حدث بعد لأي ، وما وصلوا له إلاَّ بعد شِدَّة ، ولم يُلقوا عَصًا تسيارهم إلاَّ بعد تعب .

وهي طريقة في الشعر والمدح ، ألمح فيها الشاعرُ إلى طلبه وغرضه ، وأشار بها إلى أنَّ الحاجة بلغت الغاية عنده ، ولن تزول إلاَّ بلقاء الممدوح الذي قال فيه بعد ذلك[2]:

وفي المنصورِ مأوى وانتصارٌ لمنبوذِ الوسائلِ بالعراءِ

ومن المثل المعروف ((شنشنةٌ أعرفها من أخزمِ))[3]- وهو يضربُ في قرب الشَّبَه - استقى حازم قوله في المدح[4]:

آثارُ هَدي فيهمُ موروثةٌ وشناشنٌ معروفةٌ من أخزمِ
وعُلاً تواصَوا كابراً عن كابرٍ بتراثهنَّ على الزَّمانِ الأقدمِ

---

(١) انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ٢/١٨٦ .

(٢) ديوان ابن درّاج ، ص٤٥٤ .

(٣) والشعر لأبي أخزم الطائي ، وهو جدُّ أبي حاتم أوجد جدّه ، كان له ابن عاق يقال له أخزم فمات ، وترك بنين فوثبوا يوماً على جدِّهم أبي أخزم فأدموه ، فقال :
إن بنيَّ ضرَّجوني بالدَّم شنشنة أعرفها من أخزم
يعني أنهم أشبهوا أباهم في العقوق ، والشنشنة : الطبيعةُ والعادة ، ويُضرب في قرب الشبه . انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ١/٣٦١ .

(٤) ديوان حازم القرطاجنّي ، ص١٠٥ .

ومن المثل البدويّ القديم (لا ناقتي في هذا ولا جملي)[1] استقى لسان الدين بن الخطيب قوله في النسيب[2]:

(لا ناقةٌ لي في صَبري ولا جملُ) من بعدِ ما ظَعَنَ الأحبابُ واحتملوا
قالوا استقلُّوا بعينِ الفطرِ قلتُ لهم ما عَرَّسوا بسوى قلبي ولا نَزلُوا

والمثل يضرب عند التبرّي من الظلم والإساءة ، صرفه ابن الخطيب إلى التبرّي من الصَّبر والتحمُّل ، ((وبين أمثالِ العربِ أشعارٌ جاهليَّة الأصلِ صارت مثلاً ، ولا يزالُ بعضٌ منها حيٌّ يُضرب به المثل ، لما فيه من حكمةٍ ، ومن ملاءمةٍ لكلّ وقتٍ وزمان ...))[3]، فتمثل الحجاج قديماً في خطبته المشهورة بالكوفة بقول الحُطَم القيسيّ[4] :

هذا أوانُ الشدِّ فاشتَدي زِيَمْ قد لفَّها اللَّيلُ بسوَّاقٍ حَطِمْ

وقوله ((بسوَّاقٍ حَطِمٍ)) أي رجلٍ شديد السوق لها يحطمها لشدة ذلك ، ولم يرد إبلاً يسوقها وإنما يريد أنَّه داهيةٌ متصرِّفٌ[5] ، وفي المثل ((شرُّ الرِّعاء الحُطَمَةُ))[6] وهو العنيف برعاية الإبل في السَّوقِ[7] .

وقد تمثَّل ابن حمديس بهذا القول في سياقِ المدح ، والتهنئةِ بفتح حصنٍ

---

(١) أصل المثل للحارث بن عبَّاد ، حين قَتَل جسَّاسُ بن مرَّةَ كليباً ، وهاجت الحربُ بين الفريقين ، وكان الحارث اعتزلهما ، قال الرَّاعي :

وما هجرتك حتَّى قلت معلنةً لا ناقةٌ لي في هذا ولا جملي

يضربُ عند التبرّي من الظلم والإساءة ، انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ٢/٢٢٠.

(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب ، ٢/٥٠٧ .

(٣) المفصَّل ، دكتور جواد علي ، ٨/٣٦٤ .

(٤) انظر : الكامل ، المبرّد ، ١/٢٨٢ .

(٥) انظر : اللِّسان ، مادة (حطم) .

(٦) انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ١/٣٦٣ .

(٧) انظر : اللِّسان ، مادة (حطم) .

يقال له الأجمّ ، وأراد بذلك تشبيه الممدوح بالسَّواقِ الحطم العنيف الذي ساق أعداءه للموت ، فقال[1] :

تحطِّمُ السمرَ في الأبطالِ إن طعنتْ وساقَها للمنايا سائقٌ حَطِمُ

وتمثّل الأعمى التطيلي بقول صخر بن عمرو أخو الخنساء ((وقد حيل بين العَيْرِ والنَّزوان))[2] في سياق الرِّثاء وانقطاع الرَّجاء فقال[3] :

يقولونَ لا تبعدْ ولله درُّهُ (وقد حيلَ بين العَيرِ والنَّزوانِ)
ويأبونَ إلاَّ ليتَهُ ولعلَّه ومن أينَ للمقصوصِ بالطَّيرانِ

وهكذا نجدُ ... أنَّ الشعراء الأندلسيين استقوا من الموروث الشعري القديم ، والأمثال في صورهم ، وكانت مصدراً غنيًّا من مصادر هذه الصُّور ، التي دلَّ وجودها في الشِّعر الأندلسيّ ، على عمق معرفة أصحابه بالتراث القديم وولعهم به .

الموروث التاريخي :

ومن المصادر الكثيرة للصُّورة الشعريَّة في الأندلس ، الموروث التاريخي القديم ، فقد استلهم الشعراء الأندلسيُّون في شعرهم ـ شأن غيرهم من الشعراء ـ من تاريخ الأمم البائدة ، والقبائل العربيَّة ، وأنسابها ، وأيامها ، ومعاركها ، وملوكها ، وما كان من قصص عربيّ قديم ، ((والقصصُ مظهرٌ من مظاهر الفكر الجاهليّ ، أشير إليه في القرآن الكريم ، وكان شائعاً عند الجاهليين ...))[4].

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ص٤٦٣ .

(٢) والبيت :

أهمُّ بأمرِ الحزم لا أستطيعُهُ وقد حيلَ بين العَيْر والنَّزَوان

وأول من قال ذلك صخر بن عمرو أخو الخنساء ، وقد كان مرض زماناً حتى ملَّته امرأته ، وكان يكرمها ، وقد ذكر ذلك عندما حمل السيفَ فلم تقلّه يده ، انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ٩٦/٢ .

(٣) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٢٣٠ .

(٤) المفصَّل ، دكتور جواد علي ، ٣٧١/٨ .

فـ ((من القصص قصصُ الملوك والأبطال، وساداتُ القبائل والأيام، ويلعبُ قصصُ الأيام الدور الأوَّل في هذا القصص، لما له من أثرٍ في العصبيَّة، وكان هذا القصصُ من أحبِّ القصصِ إلى نفوسهم، وقد زُوِّق ونُمِّق . . . وكان أصحاب الرسول ﷺ حين يتسامرون يتناشدون الشعر، ويتذاكرون الأيام، جرياً على سنَّتهم في الجاهليَّة، وقد استمرَّ هذا القصصُ إلى عهدٍ قريب، ولا زال معروفاً في القُرى وفي بعضِ الأقطار العربيَّة ...))[1].

وقد استلهم الشعراء الأندلسيون من الموروث التاريخي القديم، في كثيرٍ من صور شعرهم، ومن الأمثلة على ذلك، قول لسان الدين بن الخطيب يذكر الأقوامَ والأممَ البائدة[2]:

ولو أجلبت للحربِ (عادٌ)[3] و(جرهمٌ)[4] ولبَّتْ (جُديساً)[5] إذْ دَعَتْ أختها (طسمُ)[6]

---

(١) المفصَّل، دكتور جواد علي، ٣٧٣/٨.

(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب، ٥٤٥/٢.

(٣) عاد: قبيلة، وهم قوم هود عليه السلام، قال الليث: وعاد الأولى هم عادُ بن عاديا ابن سام بن نوح الذين أهلكهم الله تعالى، وأما عادٌ الأخيرة، فهم بنو تميم ينزلون رمال عالج، انظر: اللِّسان، مادة (عود).

(٤) جرهم: حيٌّ من اليمن نزلوا مكة وتزوج فيهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهم أصهاره، ثم ألحدوا في الحرم فأبادهم الله تعالى، انظر: اللِّسان، مادة (جرهم).

(٥) جُديس: حيٌّ من عاد، وهم أخوة طسم، وفي التهذيب: جديس حيٌّ من العرب كانوا يناسبون عاداً الأولى، وكانت منازلهم اليمامة، وهي قبيلةٌ كانت في الدهر الأول، فانقرضت، انظر: اللِّسان، مادة (جدس).

(٦) طسم: حيٌّ من العرب، انقرضوا، قال الجوهريّ، طسم قبيلة من عاد، كانوا فانقرضوا، انظر: اللِّسان، مادة (طسم).

((ولقد تحدث أهل الأخبار عن عادٍ وثمود، وطسم، وجديس، وجرهم، وغيرهم من الأمم البائدة)) انظر: المفصَّل، دكتور جواد علي، ٧٤/١.

ولو أقسمت أن تغلبَ الجمعَ (تغلـبٌ)[1]   وتنسفُ جرمَ الأرضِ إن حملت (جَـرَم)[2]

فذكر ابن الخطيب ، عاداً وجرهماً ، وطسماً وجديس ، من الأمم البائدة ، كما ذكر من قبائل العرب تغلب وجرم ((وفي قصصهم قصصٌ له أصلٌ تاريخيّ لكنه لم يحافظ على نقاوتِهِ وأصله ، وإنما غلب عليه عنصر الخيال فحوَّله إلى أسطورة ، رُصِّعت بالشِّعر في الغالب ، وبالجنس ، لتثير الغرائز فتقبل الأنفسُ على سماعها ، ومن هذا القبيل قصص طسم وجديس وقصص الزبَّاء ، والتبابعة والأقوام الغابرة ، حيث نجدُ قصصهـم فـي كتب الأخبار والأدب ...))[3].

وقد كان الشعراءُ الأندلسيُّون على اطلاعٍ واسعٍ ومعرفةٍ كبيرةٍ بهذا الموروث من كتب الأخبار والأدب المتداولة ، ولذا جرى الاستمـدادُ منهـمـا ، واسترفادُ ما فيها من عبرٍ في صور شعرهم ، وكانت من مصادره الغنيَّة الثريَّة ، وبخاصَّة في غرض الرِّثاء ، للاستعبار بفنائهم ، وأن لا أحد باقٍ خالد ، ومن ذلك قول ابن عبدون اليابري[4] :

نعم هـو الـدَّهرُ مـا أبقـت غوائلُـهُ   علـى جـديسٍ ولا طسـمٍ ولا عـادِ

وفي مثل هذا السياق ـ سياق الرثاء ـ يقول ابن شهيد[5] :

---

(١) تغلب : أبو قبيلة ، وهو تغلب بن وائل بـن قاسـط بن هنب بن أفصـى بن دعـمـي ابن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وقولهم : تغلب بنت وائل ، إنما يذهبون بالتأنيث إلى القبيلة ، وكانت تغلب تسمى الغلباء ، انظر : اللِّسان ، مادة (غلب).

(٢) جرم : بطنان بطنٌ في قضاعة وهو جرم بن زبَّان ، والآخـر في طيىء ، وبنو جارم بطنان ، بطنٌ في بني ضبَّة ، والآخر في بني سعد ، قال الليث : جرم قبيلة من اليمن ، وبنو جارم قومٌ من العرب ، انظر : اللِّسان ، مادة (جرم).

(٣) المفصَّل ، دكتور جواد علي ، ٣٧٤/٨ .

(٤) ديوان ابن عبدون ، ص١٢٧ .

(٥) ديوان ابن شهيد ، ص٧١ .

سهامُ المَنايا تصيبُ الفتى ولو ضربُوا دونهُ بالسُّدادْ[1]
أصبنَ على بطشِهِمْ جُرهماً وأصْمَين[2] في دارِهِمْ قومَ عادْ
وأقعصنَ[3] كلباً[4] على عزِّهِ فما اعتزَّ بالصَّافناتِ الجيادْ

وكذلك يردِّد ابن حمديس ، أسماءَ هذه القبائل بقصد الاستعبار بزوالها ، يقول[5] :

أين من عمَّرَ اليبابَ[6] ، وجيلٌ لبسَ الدَّهر من جُدَيسٍ وطَسم
وملوكٌ من حميرٍ[7] ملأوا الأرضَ وكانتْ من حكمهم تحتَ خَتْمٍ[8]

وقد كان الشعراءُ الأندلسيُّون كثيراً ما يستعرضون معرفتهم بالأنسابِ والقبائل العربيَّة ، ومن ذلك قول الأعمى التطيلي[9] :

بهاليلُ[10] من قحطانَ سارُوا بذكرهِمْ إلى مَثَلٍ في الجودِ والبأسِ سائرُ

وقول ابن شهيد يذكر تغلب ووائل[11] :

---

(١) السُّدادُ : ما سُدَّ به من جبلٍ أو ردمٍ أو غيره ، انظر : اللِّسان ، مادة (سدد).
(٢) أصمين : أصبنَ وقتلنَ ، انظر : اللِّسان ، مادة (صما).
(٣) أقعصنَ : الإقعاصُ أن تضرب الشيء أو ترميه فيموتُ من مكانه ، انظر : اللِّسان ، مادة (قعص).
(٤) كلباً : هو كليبُ وائل ، وهو كليب بن ربيعة من بني تغلب بن وائل ، كان يقالُ : أعزّ من كليبِ وائل ، انظر : اللِّسان ، مادة (كلب) .
(٥) ديوان ابن حمديس ، ص٤٧٨ .
(٦) اليباب : الخراب الذي ليس فيه أحد ، انظر : اللِّسان ، مادة (يبب) .
(٧) حمير : هو حميرُ بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أبو قبيلة ، ومنهم كانت الملوك في الدَّهر الأول ، انظر : اللِّسان ، مادة (حمر) .
(٨) تحت ختم : أي تحت سلطانهم ، انظر : اللِّسان ، مادة (ختم) .
(٩) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٥٣ .
(١٠) بهاليلُ : البهلول الحييُّ الكريم ، انظر : اللِّسان ، مادة (بهل) .
(١١) ديوان ابن شهيد ، ص١١١ .

هوًى تغلبيٌّ[1] غالبَ القلبَ فانطوى على كمدٍ من لوعةِ القلبِ داخلِ
ردي تعلمي بالخيلِ ما قرَّبَ النَّوى جيادكِ بالثرثارِ[2] يا ابنةَ وائلِ[3]

يقول المقّري ((واعلم أنه لما استقرَّ قدمُ أهلِ الإسلام بالأندلس ، وتتامَّ فتحها ، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان))[4] .

وقد كان من قبائل العرب المشهورة (قيس عيلان) وهو (بطنٌ ضخم من بطون العرب) [5] من العدنانيَّة وينتمي إليها كثيرٌ من الأندلسيين[6] ، ولذلك ذكرها شعراؤهم كثيراً ، فقال ابن شهيد راثياً[7] :

هوى قمراً قيسُ بنِ عيلانَ[8] آنفاً وأوحشَ من كلبٍ[9] مكانُ زعيمِ

كما قال ابن حربون الشَّلبي مادحاً[10] :

همُ قيسُ عيلانَ الذين تلبسُوا بخُلُعِ الملوكِ السَّاقياتِ القوائما
فما منهم إلاَّ على الهولِ مقدمٌ كذاك عظيمُ القومِ يغشى الأعاظما

---

(١) تغلب : قبيلة من العرب تنسبُ إلى تغلب بن وائل ، انظر : اللّسان ، مادة (غلب).
(٢) الثرثار : وادٍ عظيم ، انظر : اللّسان ، مادة (ثرر) .
(٣) وائل : هو وائل بن قاسط بن أقصى بن دُعمى ، رجلٌ غلبَ على حيٍّ معروف ، ونسبت إليه قبيلة من العرب ، انظر : اللّسان ، مادة (وأل) .
(٤) نفح الطيب ، المقّري ، ١/٢٩٠ .
(٥) مجمع الأمثال ، الميداني ، ١/٣٤٨ .
(٦) انظر : نفح الطيب ، المقّري ، ١/٢٩١ .
(٧) ديوان ابن شهيد ، ص١١٩ .
(٨) قيس عيلان : اسم قبيلةٍ من مضر ، تنسب إلى الناس بن مضر بن نزار ، وقيس لقبُه ، انظر : اللّسان ، مادة (قيس) .
(٩) كلب : حيٌّ من قضاعة ، انظر : اللّسان ، مادة (كلب).
(١٠) ديوان ابن حربون ، ص١٥٩ .

وقال ابن الحداد أيضاً ذاكراً هذه القبيلة على سبيل الفخر بنسبه العربي[١]:

خليليَّ مـــن قـــيس بـــن عـــيلانَ خلِّيــا   ركـــابي تُعـــرِّجْ نحـــوَ منعرجاتِهَـــا

فقد كانت قبيلة (قيس عيلان) من القبائل المشهورة ، بالعز والمنعة ، قال ابن ميادة مفتخراً[٢] :

ولو أنَّ قيسَـــاً قـــيسَ عـــيلانَ أقســـمت   على الشمسِ لم يطلع عليـــكَ حجابُهـــا

واستثمر الشعراءُ الأندلسيّون معرفتهم بالقبائل العربيَّة والأنساب ، في أغراض شعرهم ، وبخاصّةٍ في المدح ، فقال ابن درّاج[٣] :

قبائـــلُ مـــن أبنـــاءِ عـــادٍ وجـــرهمٍ   لـــهـــم صفْو ما تَنْميه عـــادٌ وقحطـــانُ
بنو دولِ الملـــوكِ الـــذي ســـلَفت بـــه   لآبـــائهم فيهـــا قـــرونٌ وأزمـــانُ

ويكثر ابن درَّاج من ذكر القبائل العربيَّة في مدائحِهِ كما يستقي من الأحداث القديمة ، في صورها ، يقول[٤] :

ومن حمـــيرٍ[٥] ردَّ القَنـــا أحمـــرَ الـــذُّرى   ومن ســـبإ[٦] قـــادت كتائبُـــه السَّـــبَيَا
وما نامَ عنه عـــرقُ قحطـــانَ إذ فَـــدَى   عروقَ الثَّرى من غلَّةِ القحـــطِ بالسُّـــقيا

ويمضي ابن درَّاج في القصيدة ذاكراً أسماء قبائل اليمن ، مستعرضاً معرفته بالتراث والتاريخ[٧] :

---

(١) ديوان ابن الحداد ، ص١٦١ .
(٢) العمدة ، ابن رشيق ، ١٤٤/٢ .
(٣) ديوان ابن درّاج ، ص١٣٧ .
(٤) المصدر السَّابق ، ص٢٧٠ .
(٥) أبو قبيلةٍ من اليمن ، إليه تنسب ملوك اليمن ، انظر : اللِّسان ، مادة (حمر).
(٦) سبأ : اسم رجل يجمع عامَّة قبائل اليمن وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقيل اسم بلدة كانت تسكنها بلقيس ، قال الزجاج : سبأ هي مدينة تعرف بمأرب من صنعاء على مسير ثلاث ليال ، انظر : اللِّسان ، مادة (سبأ) .
(٧) ديوان ابن درَّاج ، ص٢٧٠ .

ولا أسكَنَتْ عنه (السَّكونُ)[1] سيادةٌ ولا رضيتْ (طيٌّ)[2] لراحتِهِ طيَّا
ولا كَنَدتْ أسيافُهُ ملكَ كندةٍ[3] فيتركَ في أركانِ عزَّتِها وهيَا[4]
ولا أقعدتْه عن إجابةِ صارخٍ تجيبُ ولو حبواً إلى الطَّعنِ أو مشيَا
وكائنْ لَهُ في الأوسِ[5] من حقِّ أسوةٍ بنصرِ الهُدى جَهْراً وبذلِ النَّدى خفيَا

واستلهم الشعراءُ الأندلسيّون أيضاً في صورهم الشعريَّة أسماء رجالات العرب المشهورين ، وما عرف عنهم من بأس ، وشجاعة ، أو كرم ونجدةٍ ، وغيرها من الشمائل العربيّة البدويَّة الكريمة ، فقال ابن هانئ مادحاً[6] :

فكأنَّهُ سيفُ بن ذي يزنٍ[7] بهـا وكأنَّها صنعاءُ[8] أو غمدانُها

وذكر ابن هانئ أيضاً من مشاهير العرب المعروفين بحلمهم وكرمهم ، في سياق تشبيه الممدوح بهم فيما اشتهروا به من حلم وكرم وغيره .

ومنهم الأحنف بن قيس ، وحاتم الطائي ، فقال[9]:

---

(١) السكون : موضع من أرض الكوفة ، انظر : اللِّسان ، مادة (سكن) .

(٢) طيّ : قبيلة ، وسميت طيّ طيًّا لأنها أوَّل من طوى المناهل ، أي جاز منهلاً إلى منهلٍ آخر ، ولم ينزل ، انظر : اللِّسان ، مادة (طوي) .

(٣) كندة : أبو قبيلة من العرب ، وقيل أبو حيٍّ من اليمن ، وهو كندة بن ثور ، انظر : اللِّسان ، مادة (كند) .

(٤) وهياً : شقَّا : اللِّسان ، مادة (وهي) .

(٥) الأوس : قبيلةٌ من اليمن ، وهو أوس ابن قيلة أخو الخزرج منهما الأنصار ، وقيلة أمهما ، انظر : اللِّسان ، مادة (أوس) .

(٦) ديوان ابن هانئ ، ص٣٦٣ .

(٧) ذي يزن : ملك تنسب إليه الرماح اليزنيَّة ، وهو من ملوك اليمن لم يجتمع ملك اليمن لأحد بعده ، انظر : العمدة ، ٢/٢٢٦ ، ٢٣٠ .

(٨) صنعاء : موضعان أحدهما باليمن وبها بناء عظيمٌ قد خرب ، وهو تلٌّ عظيم عالٍ وقد عُرف بغمدان ، انظر : معجم البلدان ، ٣/٤٢٥ .

(٩) ديوان ابن هانئ ، ص٣٨٥ .

تُغْضِي عن الـذنبِ أحيانـاً فتحسَـبُني أشـكُّ في أحنـفِ الحلـمِ التميمـيِّ[1]
ما كنتُ أحسبُ أنَّ الدَّهرَ يزلُـفُ[2] لي بحـاتمٍ في اللَّيـالي غـيرُ طـائيِّ[3]

وكذلك يقول ابن بقي القرطبي ضارباً المثل بجود كعب بن مامة ، ذاكراً قصته مع صاحبه النِّمري[4] :

مـن جـدُّهُ كعـبُ بـن مامـةَ[5] قـدْ حـازَ النَّـدى بـالطيِّ والنشـرِ[6]

---

(١) يقال : (أحلم من الأحنف) ، وهو الأحنف بن قيس ، وكنيته أبو بحر واسمه صخر من بني تميم ، وكان في رجله حنف ، وهو الميل إلى إنسيِّها ، وكان حليماً موصوفاً بذلك حكيماً معترفاً له به ، وله قصصٌ مشهورة في ذلك ، انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ٢٢٠/١ .

(٢) يزلف : يقرب . انظر : اللِّسان ، مادة (زلف) .

(٣) يقال : (أجودُ من حاتم) ، هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج ، كان جوّاداً شجاعاً ، شاعراً مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا غنم نهب ، وإذا سُئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح سبق ، وإذا أسر أطلق ، وإذا أثرى أنفق ، وكان أقسم بالله تعالى لا يقتل واحد أمه ، وله قصصٌ مشهورة في الجود والكرم ، انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ١٨٢/١ .

(٤) الذخيرة ، ابن بسام ، مجلد٢ ، قسم٢ ، ص٦١٧ .

(٥) يقال : أجود من كعب بن مامة ، وهو إيادي ، ومن حديث أنَّه خرج في ركب فيهم رجلٌ من النمر بن قاسط في شهر ناجر ، فضلّوا ، وقلَّ الماء ، فجعلوه في قدح ، وكل منهم يشرب بقدر واحد ، فلمَّا دار وانتهى إلى كعب ، أبصر النمريَّ يحدُّ النظر إليه فآثره بمائِهِ ، وقال للسَّاقي : اسقِ أخاك النمري ، فشرب النمري نصيب كعب في ذلك اليوم ، ثم نزلوا منزلاً آخر ، وتقاسموا الماء مرَّةً أخرى ، ونظر إليه النمريُّ ثانية ، فقال كعب كقولِهِ السابق ، حتى لم يكد به قوّة للنهوض فلما يئسوا منه تركوه مكانه ففاض ، فقال أبوه مامة يرثيه :

ما كان من سوقة أسـقى علـى ظمـأ حـرًّا بـمـاء إذا ناجوذهـا بـردا

انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ١٨٣/١ .

(٦) النشر : البسط ، والطيّ : نقيضه ، انظر : اللِّسان ، مادة (نشر) ومادة (بسط) . ==

هـو آثـرَ النمـريُّ صـاحبَهُ بالمـاءِ في دوِّيَّـةِ القفـرِ
واسـاهُ حتَّـى مـاتَ مـن ظمـأ ثـمَّ انطـوى والجـودَ في القـبرِ
وأراكَ يـا زهـرُ اقتـديتَ بـهِ في صـبرِهِ ونوالـهِ الغَمْـرِ

وكذلك يقول ابن درَّاج في سياق المدح أيضاً[1] :

تجلَّلـها جـدَّاكَ : عمـروٌ[2] وتبَّـعٌ[3] واعقبَها عمَّاك كعـبٌ[4] وحاتـمُ[5]
ومـن أعربَـتْ فيـه أعـاظمُ يعـربٍ فمستصـغرٌ في أصـغريهِ العظـائمُ

فمدح ابن درَّاج بنسب العرق العربيِّ ، ونسب الفضائل العربيَّة .

ويكثر ابن درَّاج في مدائحه من استحضار أسماء رجالاتِ العرب ، وقصصهم ، وقبائلهم ، ففي قصيدةٍ أخرى يقول[6] :

= واللف والنشر من ضروبِ البديع ، وهو ذكر متعدِّد على جهةِ التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما لكل واحدٍ من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه فعلى الترتيب قول ابن حبوس :

فعـل المـدام ولونـها ومـذاقها في مقلتيـه ووجنتيـه وريقـه

وعلى غير الترتيب قول ابن حبوس :

كيف أسلو وأنـت حقـفٌ وغصـنٌ وغـزالٌ : لحظـاً وقـدًّا وردفـاً

انظر : الإيضاح ، القزويني ، ص٣٦٦ .

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص٢٥٨ .

(٢) عمرو : العمران : عمرو بن جابر بن هلال بن عقيل بن سمي بن مازن بن نزارة . وبدر بن عمرو بن جؤية بن لوذان بن ثعلبة بن عديِّ بن فزارة ، وهما روقا فزارة ، أي أعلاها .

وأنشد ابن السكيت لقراد بن حبش الأنصاري يذكرهما :

إذا اجتمع العمران : عمرو بـن جـابرٍ وبدرُ بن عمرٍ ، خلـت ذبيـان تبَّعَـا

انظر : اللِّسان ، مادة (عمر).

(٣) تبَّع:هو ملك في الزمان الأول اسمه أسعد أبو كرب،كان ملك اليمن،ويسمَّى تبعاً.
انظر : اللِّسان ، مادة (تبع) .

(٤) كعب بن مامة : يضرب به المثل في الإيثار .

(٥) حاتم الطائي : يضرب به المثل في الجود والكرم .

(٦) ديوان ابن درَّاج ، ص٢١٧ .

فكأنّما تابعتُ (تُبَّعَ)[1] رافعاً أعلامَهُ ملكاً يدينُ له الورى
و (الحارثَ الجفنيّ)[2] ممنوعَ الحمى بالخيلِ والأسادِ مبذولَ القرى
وحططتُ رحلي بين ناري (حاتمٍ)[3] أيّامَ يقري موسراً أو مُعسِرَا
ولقيتُ (زيدَ الخيلِ)[4] تحت عجاجةٍ يكسو غلائلَها الجيادَ الضمَّرا
وعقدتُ في (يمنٍ)[5] مواثقَ ذمَّةٍ مشدودةَ الأسبابِ موثقةَ العُرى

فاستلهموا قصص الإيثار والكرم ، وضربوا الأمثال بقصص البأسِ والقوَّة ، في مثل قول حازم القرطاجني يمدح[6]:

له يوم بأسٍ مشرقُ الجوِّ مظلمٌ ويومُ سماحٍ مشمس الأفقِ غائمهُ

---

(١) تبَّع : من ملوك اليمن ، وهم التبابعة ، سموا بذلك لأنه يتبع بعضهم بعضاً ، كلما هلك واحدٌ ، قام مقامه آخر تابعاً له على مثل سيرته ، وتُبَّع ملك من ملوك اليمن كان مؤمناً ، وقومه كانوا كافرين ، انظر : اللِّسان ، مادة (تبع) .

(٢) ذكره النابغة في شعره ، الذي مدح فيه عمرو بن هند وهو جدُّ الممدوح :
والحارث الجفنيّ سيّدُ قومه ليلتمسن بالجمعِ أرضَ المحاربِ
ديوان النابغة ، ص٤٥ .

(٣) حاتم : حاتم الطائي يضرب به المثل في الجود ، وهو حاتم بن عبد الله بن سعد ابن الحشرج ، انظر : اللِّسان ، مادة (حتم) .

(٤) زيد الخيل : هو زيد الخيل بن مهلهل من طيئ جاهليّ وأدرك الإسلام ، ووفد على النبي ﷺ وسماه (زيد الخير) ، وقال له ما وصف لي أحدٌ في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلاَّ رأيتُه دون الصفة ليسك ، يريد : غيرك ، انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٥٦ .

(٥) يمين : قيل لناحية اليمن يمن لأنها تلي يمين الكعبة ، كما قيل لناحية الشام شام لأنها عن شمال الكعبة وقال النبي ﷺ ، وهو مقبلٌ من تبوك : الإيمان يمانٍ ، والحكمة يمانية ، ويقال : إن مكة من أرض تِهامة ، وتهامة من أرضِ اليمن ، انظر : اللِّسان ، مادة (يمن) .

(٦) ديوان حازم القرطاجنّي ، ص١١٠ .

وقد أشار الشاعر بذلك إلى يومي النعمان بن المنذر ، يوم البؤس ، ويوم النعيم ، وكان في يومِ البؤسِ يقتلُ أوّل من يصادفه[1] ، ولم يرِد حازم بذلك أن يصف ظلمه ، وإنما أراد إضفاء المهابةِ على ممدوحه ، فنسب إليه هذه الأفعال التي كان يقوم بها ملك من ملوك العرب ، أوقعت في قلوب أعدائِهِ المهابة منه .

ومن لمحات الشعر الدالة على خصوصية في الحسِّ الفني ، قوله (يوم بأسٍ)[2] بدلاً من (يوم بؤس)[3]، فنسب إليه قوّةً لا شرًّا ، وهي من دقائقِ صنعةِ الشعر .

وقد استلهم الشعراءُ الأندلسيُّون أيضاً ، قصَّة مالك بن نويرة ، وأخيه متمّم ، وقصَّة ندماني جذيمة ، فذكرهم الأعمى التطيلي ـ في سياق الرثاء ـ للدلالة على أن التفرق بالموتِ قد يطال أشدّ الخليلين توالفاً وتلاحماً فقال[4]:

وأعلنَ صرفُ الدَّهرِ لابني نويرةٍ[5] بيوم تناءٍ غال كلَّ تدانى
وكانا كندماني جذيمةَ[6] حقبةً من الدَّهر لو لم تنصرم لأوانِ

---

(١) انظر : قصة المثل (إنَّ غداً لناظره قريب) ، مجمع الأمثال ، الميداني ، ١/٧٠.

(٢) البأس : الشدّة في الحرب ، انظر : اللّسان ، مادة (بأس) .

(٣) البؤس : الخضوع والفقر ، انظر : اللّسان ، مادة (بأس) .

(٤) ديوان ابن هانئ ، ص٢٢٥ .

(٥) مالك ومتمم ابنا نويرة ، هما من ثعلبة بن يربوع وكان مالك فارس ذي الخمار ، وذو الخمار فرسه ، قتله خالد بن الوليد في الردة ، وتزوج امرأته ، وقتل من قومه مقتلة عظيمة ، ولهذا السبب كان سخط عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على خالد ابن الوليد ، ومن شعر متمم في أخيه مالك يرثيه :

وكنّا كندماني جذيمةَ حقبةً من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا
فلمَّا تفرقنا كأني ومالكاً لطول اجتماعٍ لم نبت ليلةً معا

انظر : الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص١٩٣ .

(٦) ندماني جذيمة : هما مالك وعقيل ابنا فارج ، كانا وجدا ابن أختٍ لجذيمة الأبرش ملك الحيرة ، فقال لهما : حكمكما ، فسألاه منادمته ، فلم يزالا نديميه حتى فرّق الموت بينهما ، يضرب بهما المثل في التواخي يقال (كندماني جذيمة) ، قالوا : دامت لهما رتبة المنادمة أربعين سنة ، انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ٢/١٣٨.

وذكر التطيلي ما كان من أيام العرب ، ومنها حرب داحس والغبراء ، قال[1] :

ومالَ على عبسٍ وذبيانَ[2] ميلةً فأوذى بمجنِّي عليه وجاني

كما ذكر التطيلي في هذه القصيدة ، ما جرى لكليب وائل ، للاستعبار بما في قصته من أحداث قال[3] :

والحى على ابني وائلٍ فتهاصَرا غصونَ الرَّدى من كزَّةٍ[4] ولدانِ[5]
تعاطى كليبٌ فاستمرَّ بطعنةٍ أقامت بها الأبطالُ سوقَ طعانِ
وبات عديٌّ[6] بالذنائبِ[7] يصطلي بنار وغَى ليستْ بذاتِ دُخانِ

فقد استقى الشعراء الأندلسيُّون صورهم من التراث القديم وما عُرف عن رجالاتِ العرب ، وقصصهم المشهورة التي كانوا يفخرون بها ويتمدَّحون ويمدحون .

والحديث عن النمري أو كعب أو حاتم أو الأحنف وغيرهم حديثٌ عن شمائل العرب البدويَّة ، ومنها الإيثار والكرم ، والحلم ، والمعاني الجليلة ، وهي تلحقُ بالبداوة لأنَّها حدثت في أرض الباديةِ وكانت سياقاتها مرتبطة

---

(١) ديوان التطيلي ، ص٢٦ .

(٢) عبس وذبيان : قبيلتان كانت بينهما حرب داحس ، وداحس اسم فرس معروف مشهور لقيس بن زهير بن جذيمة العبسي ، وقد هاجت الحرب بين عبس وذبيان أربعين سنة ، انظر : اللِّسان ، مادة (دحس) .

(٣) ديوان الأعمى التطيلي ، ص٢٢٦ .

(٤) كزّة : صلابة ، انظر : اللِّسان ، مادة (كزز) .

(٥) لدان : لين ، انظر : اللِّسان ، مادة (لدن) .

(٦) عدي : هو مهلهل بن ربيعة أخو كليب ، ويوم الذنائب بين بكر وتغلب ، انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ٤٤٢/٢ .

(٧) الذنائب : موضع بنجد ، قال مهلهل بن ربيعة :

فلو نبش المقابر عن كليب فتخبر بالذنائب أيُّ زير

انظر : اللِّسان ، مادة (ذنب)

بمعيشةِ البدو وحالاتهم ، ولكنها قصصٌ دخلت في عمق المأثور العربي ، وجعلت من رجلٍ بدويٍّ آثر صاحبه بقطرة ماء مثلاً يضرب على مرّ الأجيال عند الحديث عن المعاني الكريمة الجليلة .

وقد استثمر الشعراءُ الأندلسيُّون ـ أيضاً ـ معرفتهم الواسعة بتاريخ الأماكن القديمة ودلالاتها في نفوس الناس ، فكانت مصدراً غنيًّا من مصادر الصُّور الشعريَّة ، استلهموا من ذكرها في الشعر ما جرى فيها من أحداث ، وما دلَّت عليه في السابق من قوَّة ومنعة ، وغيرها ، فجرى توظيفها في هذا الشعر لخدمة أغراض متعدّدة ، فقال ابن درَّاج مادحاً[1] :

يُنسي بناءكُم صنعاءَ بل إرماً[2] ذات العمادِ[3] وسنداداً[4] وغمدانا[5]

---

(١) ديوان ابن درَّاج ، ص٢٢٥ .

(٢) إرم : والد عاد الأولى ، وفي التنزيل : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ (الفجر:٧)، وقد اختلف فيها فقيل دمشق ، وقيل غيرها ، انظر : اللِّسان ، مادة (أرم).

(٣) إرم ذات العماد : معناه ذات الطول وقيل ذات البناء الرفيع المعمَّدْ ، انظر : اللِّسان ، مادة (عمد).

وفي معجم البلدان : قيل هي أرضٌ كانت واندرست فهي لا تعرف ، ومنهم من قال هي الإسكندريَّة ، وأكثرهم يقول هي دمشق ، وقيل باليمن بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شدَّاد بن عباد الذي كان جبَّاراً . انظر : معجم البلدان ، ١/١٥٥ .

(٤) سنداد : بكسر أوله وسكون ثانيه ، قصر بالعذيب وقيل نهر ، قال السكوني : سنداد منازل لإياد نزلتها لما قاربت الريف ، وفيها القصر ذي الشرفات من سنداد وكانت العرب تحجّ إليه ، وهو القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر فقال :

والقصرُ ذي الشرفاتِ من سنداد

انظر : معجم البلدان ، ٣/٢٦٥ .

(٥) غُمدان : بضم أوله وسكون ثانيه وآخره نون ، قصرٌ اتخذه يشرح بن يحصب في غمدان ، وقيل بناه سليمان بن داود عليه السلام ، أمر الشياطين فبنوا لبلقيس ثلاثة قصور ، منها غمدان ، وهدم غمدان في أيام عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، انظر : معجم البلدان ، ٤/٢١٠ .

والأبلق[1]الفرد والأبراجَ مـن أجـأ[2]   والسيلحين[3]وسدًّا[4] كـان مـا كائـا

وقال ابن هانئ أيضاً ذاكراً قصر غمدان مشبِّهاً به الممدوح في المنعة[5]:

حللـتُ بـه في رأسِ غمـدان منعـةً   وتـوَّجَني تاجـاً مـن العـزِّ والفخـرِ

فوظّف الشاعر الأماكن القديمة لخدمة غرض المدح .

ومن الأمثلة الأخرى على ذلك ، قصيدة لابن هانئ ، يهنئ فيها الممدوح بفتح قلعة كتامة ، يقول[6]:

بلى : هذه تيمـاءُ[7]والأبلـقُ الفـردُ[8]   فَسَلْ أجماتِ الأسدِ مـا فعـلَ الأسـدُ

يقولون : هـل جـاءَ العـراقَ نـذيرُها   فقلتُ لهم ما قالـت العـيسُ والوخـدُ

أصيخُوا فما هـذا الـذي أنـا سـامعٌ   برعدٍ ولكـن قعقـعَ الحلـقُ السَّـردُ

---

(١) الأبلق : حصن السموأل بين عاديا اليهودي ، وهو المعروف بالأبلق الفرد ، وقيل له الأبلق لأنه كان في بنائه بياضٌ وحمرة ، وقد زعم الأعشى أنَّ سليمان بن داود عليه السلام هو الذي بناه فقال :

بناهُ سليمان بن داود حقبةً

وفي الأبلق يقول الأعشى أيضاً :

بـالأبلق الفـرد مـن تيمـاء منزلُـهُ   حصنٌ حصـينٌ وجـارٌ غـيرُ غـدَّار

انظر : معجم البلدان ، ١/٧٥ .

(٢) أجأ : مهموز ، جبل في طيئ ، انظر : معجم البلدان ، ١/٩٤ .

(٣) السيلحين : حصنٌ عظيم بأرضِ اليمن كان للتبابعة ملوك اليمن ، انظر : معجم البلدان ، ٣/٢٣٥ .

(٤) سدًّا : هو سدُّ مأرب المشهور بناه سبأ بن يشجب بن يعرب ، ومات قبل أن يتمّه ، فأتمته ملوك حمير بعده ، انظر : معجم البلدان ، ٥/٣٤ .

(٥) ديوان ابن هانئ ، ص١٥٤ .

(٦) المصدر السّابق ، ص١٠٥ .

(٧) تيماء : بالفتح والمد ، بليد في أطراف الشام به الأبلق الفرد ، حصن السموأل بن عادياء اليهودي فلذلك كان يقال لها تيماء اليهودي ، انظر : معجم البلدان ، ٢/٦٧.

(٨) الأبلق : مارد والأبلق حصنان قصدتهما زبّاء ملكة الجزيرة فلم تقدر عليهما ، انظر : اللّسان ، مادة (بلق) .

فذكر تيماءَ ، وبها الأبلق الفرد، وهو قصرُ السموأل بن عاديا اليهودي ، وقد قال فيه الأعشى[1] :

بـــالأبلقِ الفـــردِ مـــن تيمـــاء منزلُـــه حصـــنٌ حصـــينٌ وجـــارٌ غـــير غـــدّارِ

وفي المثل (تمرّدَ مارِدٌ وعزَّ الأبلقُ)[2] لاستعصائهما على الفتح .

فاستثمر ابن هانئ المكان القديم في قصيدةِ المدح التي ناسب فيها المطلعُ الغرضَ ، وذلك بتشبيه القلعة التي فتحها الممدوح بحصن الأبلق العـزيـز المنيع ، فذكر قعقعة السلاح ، لأنه كان يصف حرباً ، وعندما أراد ابن هانئ أن يصف رفرفة السلام بعد الحرب على هذه القلعة التي فتحها الممدوح ، لم يجد أفضل من مكانين بدويين قديمين يشتمُّ فيهما رائحة السلام ، وعبق الأوطان وهما منى ونجد ، فقال[3] :

لذاك تراهـــا اليـــومَ آنـــسُ مـــن مـــنى وأفيحَ مـــن نجـــدٍ ومـــا وصـــلت نجـــدُ

وهكذا . . . نجدُ أنَّ تاريخ العرب كان له حضورٌ بارزٌ في ثقافة الأندلسيين وفكرهم ، وبالتالي في شعرهم ، لأنَّ العناصر الثقافية التي هي من صلب الحياةِ العربيَّة البدويَّة ، بقيت في نفوسِ أصحابها ، وموروثهم ، وانتقلت من حضارةٍ لأخرى ، ومن أرض لأرض ، وتوارثتها الأجيال ، وأصبحت جزءاً من البناء الفكري والثقافي لهذه الأمة التي قامت في الأندلس .

* * *

---

(١) ديوان الأعشى ، ص١٧٥ .

(٢) انظر : مجمع الأمثال ، الميداني ، ١٢٦/٢ .

وصار مثلاً لما يعز ويمتنع على طالبه ، لأن الزباء قصدتهما ولم تقدر عليهما .

(٣) ديوان ابن هانئ ، ص١٠٥ .